سابعًا :

الأدب والنقد

الشباب والشيب في شعر ابن المعتز

دراسة موضوعية وفنية

د/الشافعي جلال الشافعي

المدرس فى قسم الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

ملخص البحث

الشباب والشيب في شعر ابن المعتز دراسة موضوعية وفنية

د/ الشافعي جلال الشافعي

يعد الحديث عن الشباب والشيب من أكثر الظواهر الإنسانية التي تنبع من حنايا الذات فتعبر بصدق عن وجدان الشاعر وأحاسيسه، كما أن للتناقض بين المرحلتين أثراً جلياً في وجدان كل إنسان لا سيما الشعراء فالشباب فتوة المرء وحداثته؛ ففيه يكون الإنسان في أزهى مراحل العمر نضارة في الوجه وسوادا في الشعر وهي مرحلة القوة والنشاط للإنسان ، أما الشيب فمرحلة انحناء الظهر وبياض الشعر وضعف القوة، وقد تباينت آراء النقاد في هاتين المرحلتين بين المدح والذم وهذا ما بينه المبحث الأول من التمهيد لهذا البحث (الشباب والشيب بين المدح والذم) وفي المبحث الثاني (ابن المعتز وليد البيئة والعصر) ويتناول أبرز المؤثرات التي أتاحت له النبوغ الشعري: كالموهبة ، والثقافة، وأثر السياقات الحضارية في العصر العباسي على شعره ويدور الفصل الأول عن (الدراسة الموضوعية) كالتحولات في حياة الشاعر من أثر المشيب، وتبريرات الشاعر للمشيب ، وفلسفته في ذلك ، وآماله في العودة للشباب مرة أخرى، والأسى والحزن لمرور الشباب وقدوم المشيب، والسياقات الحضارية وعلاقتها بالشباب والشيب أما الفصل الثاني فقد تحدثت فيه عن (الدراسة الفنية) فعرضت لبيئة الشاعر وأثرها في خلق شخصيته الشعرية، والصورة الشعرية وتطورها لتطور الحياة، والموسيقى الشعرية متمثلة في الوزن والقافية ثم الخاتمة والتي لخصت فيها أبرز النتائج التي انتهت إليها دراستي .

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

Abstract of research entitled:

"Youth and Ageing in Ibn al – Mu'taz 's poetry. An objective and technical study"

Talking about youth and ageing is considered one of the most human phenomena that emanate from the self-immersion. It expresses honestly the heart of the poet and his feelings, and the contradiction between the two stages has a clear effect on the soul of every human being, especially the poets; as youth is one of the most powerful and youthful stages of life. The youth have freshness in the face and blackness in the hair. It is the stage of strength and activity of the human being. As for aged ones, it's the stage of curvature of the back, hair whiteness and weakness of strength. Opinions of critics was differed about these two stages between praise and slander, and this is what the first section of the preface to this research has showed (youth and Ageing between praise and slander).

In the second section (Ibn al-Mu'taz, Nascent of Environment and the Era) deals with the most influential effects that allowed him the poetic superiority: like talent, culture and the impact of cultural contexts (effects) in the Abbasid era on his poetry.

The first chapter deals with the "objective study", such as the transformations (changes) in the poet's life after ageing, his philosophy in that, his hopes of returning to youth again, the sorrow for his youth getting gray, the cultural contexts (effects) and their relationship with youth and ageing.

In the second chapter, (The technical study) I presented the environment of the poet and its impact in creating his poetic character, poetic imaging and its evolution with the evolution of life, Poetic music in the form of rhyming, then the conclusion, which summarized the most important results of my studies.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم... وبعد .

فيظل الحديث عن الشباب والشيب ذا شجون؛ لأهمية هاتين المرحلتين فى حياة الإنسان، ومن ثم تحدث الشعراء منذ أولية الشعر عنهما ، مبينين مزايا وعيوب كل مرحلة فعلى الرغم من التناقض فى السمات بين المرحلتين، إلا أن لاختلاف ذوق المبدع ورؤيته وإحساسه أثر فى أن يذكر فضائل وعيوب كل مرحلة، فإذا نال ما يتمنى من شبابه راح يعدد مآثره ويذكر حسناته ، وإذا لم ينل ما كانت تصبو إليه روحه ونفسه انهال عليه طعناً وتجريحا.

وأما إذا ذهب بقدوم المشيب كل ما كان يأتى به الشباب اغتمت روحه، وحزنت نفسه، وراح يشكو زمانه الذى أوصله إلى تلك النهاية من إعراض الجميلات وصدود الغيد الحسان ... وخمول الذكر، وإن كان ذو لب حصين وجد فى تلك المرحلة فرصة لاغتنامها ؛ ليقلع عما كان فى نفسه، فتكون فرصة للاغتنام والتطهير والعودة إلى الطريق القويم.

ومن كان أجدر من ابن المعتز بالحديث عن الشباب والشيب؛ فالشاعر أمير تربى فى دولة الخلافة فى عصر الحضارة العباسية العربية بعظمتها وضخامتها وارتفاع منزلتها فما ظنك بأمير يعيش فى قصور ضخمة وأموال وفيرة وعز باذخ وعنده الجواري الحسان وحوله الغواني الجميلات، فإذا أشاح وجهه عن الحب وجد رفقة من الشباب فى انتظاره للقيام برحلة صيد أو قنص أوخروج للتنزه فى الحدائق والرياض، إنها حياة الشباب المفعمة بالنشاط والقوة والحرية والحيوية، فإذا ذكرها فى شعره عدّد مزاياها وقصّ علينا محاسنها وفضائلها.

وما أقسى على النفس الشاعرة أن تكون مع تلك المكانة وهذا الجاه والمنزلة ،فإذا استقبلت مرحلة المشيب أدارت لها الدنيا ظهرها، وفصلت بحاجز بين ما كانت تقوم به وما يجب عليها أن تفعله، ومن هنا راح يعدد المثالب،

ويحصى العيوب، فتشيع ملامح الألم داخله ويندب ما آل إليه حاله ، ومن هنا وقع اختيارى على هذا الشاعر الفذ لدراسة شعر الشباب والشيب فى ديوانه ، لذا جاء هذا البحث بعنوان: الشباب والشيب في شعر ابن المعتز دراسة موضوعية وفنية .

ومن الدراسات السابقة التى دارت حول ابن المعتز وشاعريته وحياته.

١-دراسة " عبدالله ابن المعتز – أدبه وعلمه " لعبدالعزيز سيد الأهل – طبعة دارالعلم للملايين بيروت. تحدث عن أثر البيئة والعصر من الناحيتين العامة والخاصة؛ ليرى القارئ المؤثرات التي صنعت أدب ابن المعتز وعلمه، وقد أبرز فيها النواحي التي امتاز بها شعره، وتحدث عن فنونه الشعرية وأنواع نثره ونقداته الأدبية والبلاغية وتحدث عن صفاته وأخلاقه.

٢-دراسة " ابن المعتز وتراثه فى النقد والبيان " د/ محمد عبدالمنعم خفاجى، طبع بمطبعة الحسين بالقاهرة، الطبعة الأولى، والتى ذكر فيها سبب تأليف هذا الكتاب؛ إذ وجد أن حظ ابن المعتز وهو فى عالم الأبدية كحظه وهو يغدو ويروح وحالفه الإهمال والجحود فى حياته وبعدها، مما حفزه إلى البحث والدراسة، ويتناول هذا العلم الفذ والشاعر والناقد والكاتب والأديب والعالم المجلي فى حلبة العلم والعلماء والمؤلف الممتع فى كتبه، وأخرجه من مؤلفات فى تفصيل واسع وتحليل دقيق لعصره وحياته وشخصيته وأدبه وأثره فى النقد والبيان.

٣- تاريخ الأدب فى العصر العباسى الأول د/ محمد عبد المنعم خفاجى، ط . المكتبة الأزهرية بالقاهره، يصور فيه هذا العصر والحياة الأدبية ،وتطور الشعر وأعلامه فى ظلاله، وهو العصر الذهبي للآداب والعلوم والفنون والثقافة والمعرفة والفكر والشعر والعصر الذى حفل بمئات من الأعلام الخالدين فى الدين واللغة والمعرفة والأدب ومن هؤلاء ذكر فى نهاية الدراسة "ابن المعتز الخليفة الشاعر "فى سبع ورقات تحدث عن مكانته وكونه من طبقة الشعراء المحدثين، وتحدث عن شاعريته، ثم راح يعرض نماذج شعرية قليلة تدل على شاعريته، وترشد إلى عبقريته فى رسم لوحات فنية رفيعة يعجز عنها عباقرة الشعر.

أما أهم الدراسات التي دارت عن الشباب والشيب – والتي وقعت بين يدي– كتاب أستاذي الفاضل د. عبدالرحمن هيبه "الشباب والشيب فى الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسى "وهى دراسة جادة تضمنت نماذج عديدة من المقطعات الشعرية التي عبرت عن هذه الظاهرة الحيوية من حياة الإنسان والشعراء على وجه الأخص فى تلك الفترة الزمنية التي حددتها الدراسة.

ولم يحظ ابن المعتز بحيز واسع من هذه الدراسة، كما أنه –على حد علمى– لم يستقل بدراسة تكشف ذلك الجانب الحيوي فى شعره ؛ لذا أردت أن أسلط الضوء على ملامح تلك الظاهرة عنده .

ومما دفعني لاختيار ابن المعتز ليكون محور بحثي فى هذه الدراسة:

١–مكانة ابن المعتز الشعرية ومنزلته السامية التي صنعها بعظيم الزاد من الثقافة وكثرة الإطلاع والقراءة، وليس إثبات هذا بعسير فهذه معانيه وأفكاره وهذه تحليقاته فى التاريخ ناطقة.

٢– التعرف على المؤثرات التي وجهت ابن المعتز إلى هذا الفن، وهل كان لثقافة العصر ونهضته أثر فى حديثه عن الشباب والشيب؟

٣–التعرف على رؤية الشاعر لظاهرة الشباب والمشيب، وهل نبعت عن تجربة وعمق فى الرؤية ؟ أم جاءت سطحية لعيشة الرغد وكونه أحد أمراء العصر؟

٤– إبراز تعاون أدوات المبدع الشعرية التى يعمد إليها للتعبير عن ذاته وإبراز مكنون نفسه ورؤيته لقضية الشباب والشيب، ومن ثم كان التأثير فى المتلقي وتوصيل رؤية الشاعر وفلسفته.

٥–التعرف على تطور الفكرة فى عرض القضية، ومحاولة ترتيبها، فالمبدع فى أثناء إبداعه ونزول الإلهام الشعرى تأتيه المعانى إرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، وقد يلقى الأمر على عواهنه، فهنا تاتى مهمة الناقد في إعادة تشكيل رؤى ربما عبر عنها المبدع وترك للحس النقدي إعادة ترتيبها بحيث تظهر براعته وتدل على قدرته .

ولما كان الحديث عن الشباب والشيب من أكثر الظواهر الإنسانية التي تنبع من حنايا الذات بكل ما فيها من زفرات حرى ونبرات ملتهبة، ومن أكثر

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

الظواهر الحيوية العميقة الصلة بوجدان الشاعر، وأكثرها لصوقاً بنياط قلبه؛ خصصت هذا البحث ليبحر فى هذه الظاهرة ويميط اللثام عن بعض التمتمات النفسية حول ذلك؛ فجاءت هذه الدراسة تلتقط من بين فنون الديوان المتنوعة هذا الجانب فى الحديث عن الشباب والشيب عند الشاعر ؛ لنرى موقفه من كل مرحلة ومدى إحساسه بها ومدى إفادته من وسائل التعبير المختلفة فى الكشف عن مكنون نفسه وخبيئة ذاته ، لذا جاءت هذه الدراسة في فصلين يسبقهما تمهيد وتعقبهما خاتمة تتضمن نتائج البحث ، وثبت للمصادر والمراجع.

أما التمهيد فيتضمن عنصرين: الأول الشباب والشيب بين المدح والذم. والثانى : ابن المعتز وليد البيئة والعصر

ثم يأتي بعد ذلك الفصل الأول بعنوان : الدراسة الفكرية ويتضمن :١- تبريرات الشاعر للمشيب ٢- فلسفة المشيب ٣- محاولة إخفاء المشيب بالخضاب ٤-آمال العودة للشباب ٥- الأسى والحزن لمرور الشباب ٦- المشيب وفنون الشعر ٧-السياقات الحضارية وعلاقتها بالشباب والمشيب

ثم يأتي بعد ذلك الفصل الثانى ويتضمن : الدراسة الفنية ويدور حول:١- البيئة وأثرها في الشاعر ٢- الصورة ٣- الوزن

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفى الذي يقوم على تحليل الظواهر الفنية والمضمونية ، وأرجو أن أكون بهذه الدراسة قد كشفت عن بعض رؤى الذات الشاعرة فى الظاهرة الحتمية لشاعر ذي ملامح فكرية بارزة ونكات فنية بديعة.

،،،،،،، والله من وراء القصد ،،،،،

تمهيد

أولاً:
الشباب والشيب بين المدح والذم

ثانياً:
ابن المعتز وليد البيئة والعصر

أولاً:

الشباب والشيب بين المدح والذم

ورد فى المعاجم " الشباب : الفتاء والحداثة ، وشب يشيب شباباً : وهو خلاف الشيب وشب لون المرأة : أى خمار أسود لبسته ورجل مشبوب : إذا كان أبيض الوجه أسود الشعر وأصله من شب النار : إذا أوقدها فتلألأت ضياءاً ونورا والشباب بالكسر : نشاط الفرس والشب ارتفاع كل شيء" (١)

فالشباب مرحلة فتوة المرء وحداثته، وفيه يكون فى أزهى مراحل عمره وأبدع نضارته سواداً فى الشعر وبياضاً ونضرة في الوجه ويكون فى أوج قوته ونشاطه، فكأنه الوقود الجزل المشبوب الذي يوقد عجلة الأيام ويدفعها نحو الرقي والارتفاع والزهو والحضارة.

وأما الشيب: الشعر وبياضه كالمشيب وهو أشيب .. وشيب الحزن رأسه وليلة الشيباء فى: ش و ب وهى أخر ليلة من الشهر . ويوم أشيب وشيبان :فيه برد وغيم وصراد " (٢)

وإذا كان من جملة معاني الشيب أنه بياض الشعر فهناك خصيصة فى المعنى ينبغى الوقوف أمامها حين قال أنه آخر ليلة من الشهر وإذا كان من سمة تلك الليلة أنها حالكة السواد فكيف يتم التوفيق بين جمع البياض والسواد فى الشيء الواحد ؟ هل لهذا التضاد بين اللفظين من أثر فى الدلالة على معنى الشيب ؟

إن المقصود هنا بيان أن اللفظ يحمل معنيين : أحدهما ظاهر يتمثل فى هذا المحسوس بالرؤية وهو بياض الشعر ، والثانى : أن مع الظاهر كشف للخبيئة وتعرية لنفس الإنسان فى تلك المرحلة حيث يعتريها الأسى والحزن، وتحجب خلف أردية من قعود الهمة وتثبيط العزيمة وسوداوية الرؤية.

(١) لسان العرب: لابن منظور تحقيق : محمد بن مكرم الأنصارى، ط١، دار إحياء التراث بيروت ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م (شبب).

(٢) القاموس المحيط مجد الدين الفيروز آبادى، ط دار الجيل بيروت ،الجزء الأول ص ٩٤.

وقد ذكر الأدباء والنقاد الشيب والشباب فى أدبهم ونظراً لاختلاف النفوس والأحاسيس تباينت النظرات وتعددت الرؤى، فتارة يذكرونها مبينين ما لها من مزايا وفضائل وأخرى موضحين ما فيها من مساوئ ومثالب.

ومن الأدباء الذين مدحوا الشباب عمرو بن العلاء يقول : " ما بكت العرب شيئاً ما بكت على الشباب وما بلغت به ما يستحقه ، وقول الأصمعي : أحسن أنماط الشعر فى المراثي والبكاء على الشباب "(١)

وإذا كان الشباب يستحق البكاء فهناك من ذمه وأظهر مساوئه فيقال : " الشباب مطية الجهل ومظنة الذنوب وشعبة الجنون ويقال : سكر الشباب أشد من سكر الشراب ، وقال ابن المعتز : جاهل الشباب معذور وعالمه محقور "(٢)

وكما اختلفت الرؤية والنظرة فى الشباب اختلفت في رؤية المشيب، فهناك من عده مزية وهناك من عده مثلبة، ومن الذين مدحوا المشيب ابن المعتز حيث يقول "عظم الكبير فإنه عرف الله قبلك وارحم الصغير فإنه أغر بالدنيا منك، وكان يقال الشيخ يقـــول عن عيان والشباب عن سماع "(٣)

ويختلف إحساس الشعراء عن غيرهم فهم أرهف حساً وأرق شعوراً ويستطيعون بموهبتهم التعبير عن معاناة الناس وعذابهم موضحين ما يعتمل فى أنفسهم وما ينتابهم من أحاسيس.

وبين الذم والتفضيل يأتى قول الشريف المرتضى (٤) :

ولـى الشـباب وهـذا الشـيب طـارده يفـدي الطريـدة ذاك الطـارد العجـل
ما نازل الشيب فـى رأسـي بمرتحـل عنـــي وأعلــم أنـــي عنـــه مرتحـــل

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان، الجزء الثانى، ط المكتبه التجارية الكبرى ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م ،ص ٣٥١.

(٢) اللطائف والظرائف لأبى منصور الثعالبى، جمع الإمام المقدسى، ط مطبعة محمد صبيح القاهرة،القاهرة، ١٣٣٤م ، ص ١٠٨- ١٠٩.

(٣) السابق نفسه ،ص ١٠٨.

(٤) الشهاب فى الشيب والشباب ،الشريف المرتضى، ص ٢٩ مطبعة الجوائب قسطنطينيه، ط الاولى ١٣٠٢هـ .

من لم يعظه بياض الشعر أدركه فـى عـرة حتفـه المقـدور والأجـل
مـن أخطأتــه ســهام المـوت قيـده طول السنين فلا لهو ولا غـــزل

ويقول أيضاً عن الأثر المترتب على هذا التولي للشباب ومطاردة المشيب [١]:

ومخضب الأطراف صد بوجهه لمــا رأى شــيبي مكــان ســوادي
والغانيـات لـذي الشـباب حبائـب وإذا المشـيب دنــا فهـن أعـادي
شـــعر تبـــدل لونـــه فتبـــدلت فيـــه القلـــوب شـــناءة بـــوداد
لـم تجنــه إلا الهمـوم بمفرقـي ويخــال جــاء بــه مــع المــيلاد

وهذا دليل على عناية بهاتين الفترتين من حياة البشر؛ فحياة الإنسان على الأرض تمر بمرحلتين : أحدهما تتسم بطابع القوة والنشاط والسعي والإقبال على الحياة.

ثانيهما : تتسم بطابع الضعف والوهن والزهد فى الحياة والحكمة والرضا بما كتب الله ولم يغفل القرآن الكريم الحديث عن مرحلة الشباب فذكر أن لتلك المرحلة سمات منها : القوة الجسدية، وقد دلت عليها قصة سيدنا موسى مع بنات سيدنا شعيب حين سقى لهما قطيعهما فقالت إحداهما لأبيها (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) [٢]

ومما ورد أيضاً من سمات مرحلة الشباب : قوة الشهوات والتى إن تركت على عوانها أفسدت، وإن تهيأ لها عوامل الصلاح كانت سببا فى صون الشباب واستقامته وجاء المثال من القرآن الكريم فى قصة سيدنا يوسف، حين راودته امرأة العزيز بكل سبل الإغراء ولكن نشأته الصالحة حالت دون ذلك فجاء صده عنها بقوله (معاذ الله).

(١) السابق، ص ٢٩.
(٢) سورة القصص الآيه (٢٦).

وللشعراء مع الشباب والشيب أحوال مختلفة ومواقف متباينة، فبعضهم إذا منحه شبابه القوة والفتوة وتحقيق الأمانى والظفر بالأحلام والغواني عده نعمة وفضيلة وراح يمدحه فى شعره مبيناً مآثره وفضائله، وإذا لم ينل من شبابه ما كان يتمناه راح يذمه ويرى فيه من العيوب ما لا يحصى كالطيش والجهل وعدم الأناة والرؤية والإندفاع وراء الشهوات.

وكذا المشيب فبعضهم يرى فيه مرحلة التعقل والتدبر والحكمة والزهد والعودة إلى الطريق السليم إن كان شبابه قد حاد به عن الجادة، وأما إذا كانت أمانيه تضطرب في صدره وأحلامه تداعب خياله وما زال داعى الشباب يدعوه راح يذمه ويتهمه بإحباط همته وقلت عزيمته وقعوده عن تحقيق غايته وصبوته.

وإذا استقرأنا دواوين الشعراء نعالج فيها هذا التناقض فى الرؤية والاختلاف فى النظرة نجد النماذج الشعرية الدالة على ما سبق تنظيره.

أ : الشباب :

يرى بعض الشعراء فى الشباب عهد اللهو والمرح والقوة والفتوة والسرور والغبطة ، ومن ثم لا يفتئون يمدحونه ويذكرون أيامه ومن أمثلة ذلك قول أبى العتاهية: (١)

إن الشباب حجة التصابي روائــح الجنــة فــى الشــباب

فتكرار الشباب يدل على أهميته بالنسبة للإنسان فى العمل لنفسه والنفع لغيره .

ولا ينسى الشعراء شبابهم وهم لا يزالون يذكرون أجمل أيام حياتهم وأحلى لحظاتهم فيبكون عليه ويتحسرون على فواته ويتمنون عودته وإن كانوا يعلمون أن ذهابه بلا عوده وأن أيامه قصيرة سرعان ما تولى.

فجميل بن معمر يتمنى أن يعود الشباب؛ لأنه عهد الهوى ولقاء الأحبة يقول (٢) :

(١) ديوان أبى العتاهيه، شرح أنطوان الشعوال، ط دار الفكر العربى بيروت، ط الأولى ٢٠٠٣م، ص ٦٥.

(٢) ديوان جميل، شرح وتحقيق عدنان زكى درويش، ط دار الفكر العربى بيروت، ط٣ ٢٠٠١م، ص٥٤.

ألا ليت ريعان الشباب جديد ودهــراً تــولى يــابثين يعــود

ويرى المتنبي أن الشباب هو الذى يجدر بنا أن نبكيه يقول [١]:

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولماء وجهى رونق
حــذرا عليــه قبــل يــوم فراقــه حتى لكدت بماء جفنى أشرق

ويمضى الشعراء فى بكائهم على الشباب وتمنى عودته، حتى أن منهم من يتمنى أن ينقص من عمره فى مقابل أن يعود إليه الشباب، وإن كان الشاعر يعلم علم اليقين أن الشباب لا يعود يقول البارودى [٢]:

أيــن أيــام لــذتي وشــبابي؟ أتراهــا تعــود بعــد الــذهاب؟
ذاك عهـد مضـى وأبعـد شـيء أن يـرد الزمـان عهـد التصـابي
كل شيء يسلوه ذو اللب إلا مـاض اللهو فـى زمـان الشباب

ومن الشعراء من يذم الشباب فيرونه مطية الجهل ومركب الهوى وعهد الغي والجموح، ومن أمثلة ذلك قول النابغه الذبيانى [٣] :

وإن يك عامر قد قال جهلاً فــإن مطيــة الجهــل الشــباب

وعن ذكريات الشباب المؤلمة يحدثنا ابن الرومى فيقول: [٤]

يــذكرني الشــباب هــوان عتبــى وصــد الغانيــات لــدى عتــابي
يذكرني الشباب سهام حتف يصــبن مقاتــل دون الإهــاب

فتكرار " يذكرني الشباب " دليل على أن مرحلة الشباب لم يعد منها إلا تلك الذكريات التي يعيش عليها فتبعث ألمه وحزنه وتشعره بهوان عتبه واستصغار شأنه أمام صد الغانيات.

(١) ديوان المتنبى، شرح عبدالرحمن البرقوقى، ط دار الفكر بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، ج٢ ص ٦٧٦.

(٢) ديوان البارودي، حققه وصححه على الجارم ومحمد شفيق معروف، ط الهيئه المصرية العامة للكتاب – القاهره– ١٩٩٢ – ج الأول ص٥٤.

(٣) ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط دار المعارف، ط٣ ،ص١٠٩.

(٤) ديوان ابن الرومى، شرح أحمد حسن صبيح ، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م ، ص١٦٨.

ب : الشيب .

مرحلة المشب نذير بانتهاء عمر الإنسان، وفى طورها تنتابه الأمراض والأوجاع ويستحيل سواد شعره بياضاً ،ويخبو إقباله على ملذات الحياة، وتنخفض قوة نشاطه ويرتفع سقف إحباطه عند إعراض الغواني وصدود العذارى.

وحينما يحل المشيب يفزع الشعراء لمقدمه ويظهرون الكراهية حين يحط برحاله فى ساحتهم، فهو قذى فى عيونهم وغصة فى حناجرهم ، ومن ثم يذمونه لسوء منظره ، يقول أبو تمام [١]:

لـه منظر فـى العين أبـيض ناصـع ولكنــه فــى القلــب أســود أســفع
ونحـن نرجيـه علـى الكـره والرضـا أنف الفتى من وجهـه وهو أجدع

وما هذه المفارقة إلا مفارقة نفسية، فالسواد والحزن المقيم فى القلب من أثر رؤية بياض الشعر ونصاعته.

ففناء المرء ليس بوفاته وإنما بتولى شبابه، فإذا جاء المشيب بأمارته صار كل ما يستعذبه الإنسان ويتمتع به فى شبابه سببا فى كدره وغمه وزوال سعد وفرحه ويدفع المشيب الفارس المغوار إلى زوايا النسيان فبعد أن كان يدعى لميدان المعركة يصول ويجول أصبح يدعى فقط إلى إجتماعات فض الصلح والمنازعات والدعوة الى السلم ، يقول الشريف المرتضى [٢]:

وقد كنت ممن يشـهد الحرب مره ويرمى بأطراف الرمـاح كمـا يرمـي
إلى أن علا هذا المشيب مفارقى فلـم يـدعنى الأقـوام إلا إلـى السـلم

ويعد الشعراء المشيب أكبر همومهم ومبلغ ألمهم وحزنهم؛ لصد الغواني الحسان عنهم فى تلك المرحلة بعد الإقبال والوصول، وما كان يغتنم من الود

(١) ديوان أبى تمام ، بشرح الخطيب التبريزى، تحقيق محمد عبده عزام، ط دار المعارف، ط٤ الجزء الثانى، ص٣٢٤.

(٢) الشهاب فى الشيب والشباب، الشريف المرتضى ص٦١ .

والحب فى مرحلة الشباب، مما يجعله دائما يقف فى موقف المدافع عن نفسه لهذا الثقيل الذى حل برأسه ففرق بينه وبين أحبته يقول عمر بن أبى ربيعة [١]:

صرمت حبلك " البغوم " وصدت عنك فى غير ريبة أسماء [٢]

وكالغواني إذا رأينك كهلاً كان فيهن عن هواك التواء

ويرى دعبل الخزاعى أن الشيب سمة من سمات العفه ومظهراً من مظاهره يقول [٣]:

أهلا وسهلا بالمشيب فإنه سمة العفيف وهيئة المتحرج

وكأن شيبي نظم در زاهر فى تاج ذى ملك أغر متوج

وبالعودة إلى دواوين الشعر نجد كثيراً من هذه النماذج فى ذم المشيب وتحسينه أو فى مدح الشباب وتقبيحه .

(١) ديوان عمرو بن أبى ربيعه، شرحه وقدم له عبد أعلى مهنا ، ط دار الكتب العلمية بيروت ،ط الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، ص٢٤.

(٢) بغوم : امرأه بغوم : رخيمة الصوت (لسان العرب : بغم)

(٣) ديوان دعبل الخزاعى، جمعه وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلى، ط دارالكتاب اللبنانى، ط الثانية ١٩٧٢م، ص٥٣ .

ثانياً :

ابن المعتز" وليد البيئة والعصر "

لابن المعتز مكانة مميزة بين شعراء الأدب العربى؛ فهو صاحب منزلة عالية، ودرجة سامية، ولشعره أهمية فى عمارة الشعر العربى، فقد تميز بعبقرية شعرية ضخمة وموهبة عاتية، ونغم موسيقى ساحر، وخيال خلاق ، وعاطفة جياشة، وقاموس شعرى خصب، وحاسة تمزج بين الحاضر والماضى.

وقد تحدث كثير من الأدباء والنقاد عن ابن المعتز فتناولوا سيرته وأبرزوا المؤثرات فى اتجاهه، ومنهم من عرض لنتاجه بالدراسة والتحليل فأبرز مواضع تفوقه وأشار إلى مواطن نبوغه.

وإذا نظرنا فى حياة الشاعر لنرى ما فيها من مؤثرات نجد منها :

١. مؤثرات عملت على تكوين قاعدته فى الإبداع الشعرى :

أ – موهبته :

القارىء لشعر ابن المعتز يدهشه هذه الموهبة التي حلقت به فى سماء الشعر العربي، ورفعته إلى ذروة سنام الشعر فى العصر العباسى، وجعلته فى طليعة شعراء هذا العهد، وتفوق بها على كبار شعراء أصحاب البلاط والسلطان فى عصره وعصر الدول والإمارات ، وبها أصبح موضع الذكر تلهج بشعره الألسنة، والمنتديات بأخباره، ألم يكن مثار البحث والدرس من نقاد عصره ؟

فابن المعتز " ولد في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٢٤٩هـ . ولما كبر وترعرع ظهرت ميوله الفطرية الأدبية، فاقتبس الأدب وعلوم العرب عن أبوي العباسين: أبي العباس "المبرد "وأبي العباس " ثعلب " فنشأ شاعراً مطبوعاً سهل اللفظ جيد القريحة حسن الإبداع للمعانى " [١]

(١) مقدمة ديوان ابن المعتز فسر ألفاظه : محى الدين الخياط طبع بمناظرة : عبد الباسط الأنسى مطبعة الإقبال بيروت، ص٣ .

إن موهبة ابن المعتز قد أفرزت شاعراً فحلاً من شعراء العربية، فهو صاحب موهبة أصيلة فياضة ، ونبع ثرٍ لا ينضب، وهو بحر زاخر يحتاج المرء أن يجمع كل أدوات البحث والنقد قبل أن ينزل أعماقه ويغوص بين لؤلؤه وأصدافه.

لقد كان من أهم بواعث الموهبة و أظهر أسبابها ابن المعتز نفسه، كان يتذوق الحياة تذوق الفنان، وينظر إليها نظرة الشاعر الملهم، ويفهمها على أنها جمال فني خالص.

ب – ولكن مخزون ابن المعتز لم يتشكل من مفردات الموهبة وحدها، بل إن إدراك ابن المعتز لموهبته قد دفعه إلى أن ينميها عن طريق الثقافة بقراءة دواوين الشعر العربي، وقد طعم هذه القراءة بالتوجه إلى الوافد على العرب من تراث الأمم الأخرى.

" ففى عقلية ابن المعتز وثقافته ألوان ثلاثة : عربي مستمد من الأصل والبيئة والإتجاه، وفارسي مستمد من شيوع الثقافة الفارسية فى عصره وكثرة العناصر الفارسية التى كانت تعمل على تلوين الفكر الإسلامي بصبغتها، ويوناني مستمد من أثر الوراثة عن والدته، ومن العلماء والفلاسفة الذين خالطهم الشاعر وتأثر بهم ومن ذيوع الثقافة اليونانية وانتشار موجة الفلسفة فى عصره"(١)

ومن يمارس العمل الإبداعى عليه أن يعد لنفسه الزاد النافع كما فى رأى الأستاذ على أدهم يقول: " فمن رأيي أنه يحسن أن يكون عند الكاتب معرفة موسوعية دقيقة مستمدة من المصادر الموثوق بها وهذه المعرفة المتنوعة تعين الكاتب على فهم الحياة ومعالجة مشكلاتها ولست أشك فى أن اطلاع

(١) ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان د/ محمد عبدالمنعم خفاجى ، ط مكتبة الحسين، ط الأولى ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ٩٠ /٩١ .

الكتاب على البحوث الفلسفية وبحوث علم النفس مما يوسع آفاقهم ويعمق نظراتهم ويمدهم بمعلومات وافية" (١).

جـ – وليس الكتاب وحده هو الذى غذى موهبة ابن المعتز ونماها، فهناك شخصيات لها تأثير فى نفسه فسار على نهجها وحذا حذوها وتمثل سيرتها ونهل من ينابيعها وتدفقها.

فابن المعتز بدأ بتلقي العلم والأدب على أئمة العربية وشيوخها وأخذ يقرأ ويدرس ويتعلم وبدأت تجيش فى صدره روح الشاعرية الملهمة وتتفتح ملكاته عن ذهن خصب وعقلية ناضجة.

" وإذا كانت هذه العناصر السابقة قد أثرت على حياة الشاعر وشخصيته بطريق مباشر وعلى نتاجه بطريق غير مباشر، فإن هناك عناصر كان تأثيرها مقصور على الناحية الفنية لإنتاجه فقط، ونعنى به إتصاله بأئمة الأدب واللغة العربية فى عصره من أمثال المبرد وثعلب، فقد أتاحت له هذه التلمذه فرصة لم تتح لكثير من أبناء الخلفاء، فالمبرد لم يكن رواية أو نحوياً أو لغوياً فقط، بل كان إلى جانب ذلك ناقداً بصيراً يحسن تذوق الأدب العربى ويعنى بالقديم منه بخاصة، وهذا هو سر ولوع صاحبنا بهذا التراث القديم ومحاولته النسج على منواله في قصائد متعددة من شعره " (٢)

د – إستخدام لغة تخاطب أبناء عصره فيبثهم مكنون نفسه ومخزون صدره.

فإذا كان إطلاع ابن المعتز على تراث السابقين قد أمده بثروة ضخمة ومعين لا ينفذ إلا أن هذا التراث يخاطب أقواما تختلف حياتهم ومعيشتهم عن حياة ومعيشة ابن المعتز، فهو مكتوب بلغة تختلف إلى حد ما عن لغة عصره العباسي ، وإن كانت هي عربيتنا نفسها ولكن استحداث لغات جديدة واختلاطها بأخرى حديثة، قد جعل استعمال القديم قليلاً أو نادراً فقد عاش ابن

(١) لماذا يشقى الإنسان؟ على أدهم ، ط مكتبة تهامةمصر بالفجالة، ص ٣٥.
(٢) عبدالله بن المعتز، د/ محمد عبدالعزيز الكفراوى، ط مكتبة نهضة مصر، ص١٥.

المعتز فى "سر من رأى " فى القرن الثالث والتي حفلت بألوان الحضارة وشتى العلوم والفنون والأدب والثقافات، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بأنواع البذخ ومظاهر المجد، فألهمه هذا الجمال جمال الفن وسحر الشعر وحسن التعبير عن الذات والعصر ، والحق " أن السهولة والوضوح وتحاشي التعقيد والالتواء هى طابع أسلوب شعر ابن المعتز عامة وهى وليدة طبعه السمح وبيئته المترفة" (١)

وكذلك كانت أسرته عربية هاشمية تتصل ببيت النبوه اتصالاً وثيقاً وتجرى فى دمائها روح العروبة، بما تمتاز به من خلق وأدب ومشاعر وبما تختص به من بلاغة القول وسلامة الملكة وقوة الطبع وغزارة الشاعرية، وكان لنشأته فى هذه البيئة أثر بعيد فى إشعال روح الشاعرية بين جوانحه فالآلام القاسية التي قابلها والآمال الناضرة التي تضطرب وتموج بها نفسه كل ذلك كان له أثره فى نضوج شاعريته وإحكام ملكاته.

كما هيأ له قتل أبيه المعتز ثم نفيه وترك قصره ما لم يكن يدركه من قبل، فقد أشاع فى نفسه غصات الحزن وتباريح الأسى ، وفى كل ذلك مجالات جديدة للتعبير عن الذات فتفتقت شاعريته منذ صغره ونضجت موهبته.

وهكذا أخذ يتدرج فى نظم الشعر ويسير فيه بخطى كبيرة نحو التفوق والطبع والعبقرية مما تجلى بعد فى فنه الشعري ومجده الأدبي.

٢ : السياقات الحضارية فى العصر العباسي وأثرها فى الإبداع الشعرى عند ابن المعتز :

أ- قد يظن بعضهم أن المقطعة قد استنفدت وجه الحاجة إليها بعد أن كانت اللبنة الأولى فى بناء صرح القصيدة، وأنه نظراً لتطور الحياة لم تعد

(١) شعر ابن المعتز، صنعة أبى بكر الصولى دراسة وتحقيق : د/ يونس السامرئى، المكتبه الوطنية ببغداد -١٩٨٧ / القسم الثانى، ص٢٧١.

المقطعة تستطيع أن تعبر عن حاجة الشاعر أو تستوعب أغراضه؛ ولذلك يجب على الشاعر أن يعمد الى القصيدة يظهر فيها براعته، ويبين فيها بلاغته، ويدل بها على تمكنه اللغوي، ففى القصيدة مجال واسع لإظهار براعة الخروج من معنى إلى معنى مع القدرة على مزج المعاني وتزيينها.

وهناك من يرى أن اتخاذ المقطعة سبيلاً للتعبير عن مشاعره وذاته وعن دخيلته وكوامن نفسه يمثل ضعفاً فى التعبير عن خاطرة شاردة لذاتها دون أن يحاول وصف شيئاً غيرها، وأن صاحبها يعتبر قصير الهمة الشعرية فى عروجه على المقطعة ومن ذوي المحدودية فى التعبير لو وصف صوره فى مجموعة من الأبيات .

ولكن نستطيع القول أننا بحاجة إلى المقطعات الشعرية كما نحن بحاجة إلى القصائد الطوال فكل له أهميته وغايته التي يرمى إليها.

" سئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال: نعم، ليسمع منها ، قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم، ليحفظ عنها ..وقال بعض العلماء: يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثيل والملح أحوج اليها منه إلى الطول "[١]

وعلى هذا يكون جنوح الشاعر إليها عناية منه بمستمعه ومراعاة نفسيته، وذلك حين يتجه إلى المقطعة ، ليجنب سامعه الملل والسآمه، أما اذا كانت عنايته بعمله وصناعته وفنه، فإنه يعمد إليها لرواج سوقها فى الحفظ ،والعلوق بالأفواه والأسماع ،والسيرورة بين الناس ،وحتى يكتب لها الخلود والدوام.

وشاعت مظاهر التطور والحضارة فى العصر العباسي فى كل الميادين، ومنها مجالس الغناء والموسيقى التي تحتاج إلى المقطوعات الصغيرة؛ لسهولة

(١) العمده لابن رشيق، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد، ط دار الجيل بيروت، ط الخامسه الجزء الأول ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص ١٨٦ -١٨٧.

حفظها وتلحينها ومن ثم راجت المقطوعات وانتشرت بين شعراء هذا العهد، إذا دعت إليها حاجة الناس المدنية .

ومن ثم كان لهذا السياق الحضاري أثر كبير فى شعر ابن المعتز، فنرى الديوان يغلب عليه المقطوعات أكثر من القصائد ، مراعاة لظروف العصر وأحوال بيئته ،ومن يعيش فيها .

ب–النعى على البدء بالأطلال والدعوة إلى البدء بما هو منتزع من العصر

والبكاء على الاطلال تقليد سار عليه الشاعر العربي القديم، كان يحرص على الافتتاح به ،فصار بذلك ملمحًا من ملامح الشعر العربي، وذلك حرصاً منهم على بيان مدى عشقهم ،ودوام حبهم، فعلى الرغم مما حدث من فرقة بين الشاعر ومحبوبته ،إلا أنه لا يزال وفيًا لها، وللمكان الذى كانت تعيش فيه، فما زال يقف عليه، فتتجسد الذكريات ويطوف الخيال ،وتستعيد الذاكرة قصة الحب التي دارت بين أنقاض هذه الديار.

وقد دعا أبونواس إلى هذا التقليد القديم بعد أن رأى ماعليه واقع حياته، وواقع الحياة التى وقف فيها الشاعر على الأطلال والدمن ، وبكى الأثافي والأنقاض، فرأى من مظاهر الحياة فى عصره ما يدعو إلى التعبير المغاير عما كانت عليه حياة السابقين ، فالأرض قد ازدهت وتزينت بكل مظاهر الجمال ، وتلونت بكل مظاهر الحضارة والرقى ، فتغير شكلها وطبعت أهلها برؤى مختلفة.

يقول أبو أنواس : (١)

قل لمن يبكى على رسم درس وافقاً ما ضر لو كان جلس
اترك الربع وسلمى جانباً واصطبح كرخية مثل القبس

فهو يعرض الشعراء السابقين ، ويسخر منهم، ويدعو معاصريه إلى البدء بالخمر ، ونبذ المطالع التى أبلاها الدهر ، ولم تعد مناسبة للعصر ، وقد

(١) ديوان أبى نواس، ط دار صادر بيروت، ص ٣٦٦.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

سار ابن المعتز متأثراً بهذه السمة المعبرة عن ترف العصر وحياته الجديدة، فنهج نهجًا منتزعًا من حياته ، ولكنه لم ينزع خالصًا عن التأثر بالقديم فنراه يستلهم تراث أجداده، ويعبر عن ذاته من خلال الاستلهام ، إنه الوفاء الفني لمنهج القصيدة العربية ، يقول : (١)

قــف خليلــي نســائل الأطــلالا عـن حبيـب قـد كـان فيهـا فـزالا

لكنه فى الوقت نفسه لم ينفصل عن بيئته وسمات عصره الحضارية، فنراه يقول: (٢)

لــم ابــك ربعًــا مقفــراً ولا طلــل ولا شــباباً حــان منــه مرتحــل
ولا حبيبــاً قطــع الوصــل ومــل لكـن لعظـم حـادث بـي قـد نـزل

ج- مجالس الخمر وتابعَيها: الغناء والموسيقى.

هيأت أحوال العصر العباسي الناس لحب الغناء والتعلق بالموسيقى ، وقد مضى أمر الغناء والموسيقى قويًا جارفًا عند أبناء ذلك العصر، نتيجة ارتباطهم بمتع الحياة في مجالس الخمر ، مما جعله سياقاً حضارياً، كان له تأثيره فى شاعرية ابن المعتز ،فأجال فيه عقله ،وأعمل شاعريته.

والحديث عن الخمر ووصف تأثيرها فى نفس شاربها لم يكن جديداً على البيئة العربية ، وإنما هو حديث قديم يرجع صداه إلى العصر الجاهلى.

١.فالخمريات فن أجاد فيها الشاعر وأحسن، وقد يفوق كثيراً من أقرانه، وقارب إن لم يكن وافق الشاعر المبدع أبا نواس، ولم لا يجيد ابن المعتز وقد نشأ في بيئة أتيحت فيها العديد من مجالس اللهو، يقول ابن المعتز متحدثًا عن مجالس الخمر وما يلازمها من الغناء: (٣)

(١) شعر ابن المعتز، ج٢ ص ٦٢٨.
(٢) السابق، ج٢ ص٦٣٥.
(٣)السابق ، ج٢،ص ١٦.

ذهبت لذة الحياة فما يعـ جبنى روقةٌ ولا أدباء
لا ولا فى الغناء لذة عيشي لقد كان جل عيشي الغناء
ليس لى لذة سوى بنت كرم لم يشُبها فى دنها قط ماء
ومصافين طيبين كرام خمسة أو ثلاثة حلماء

د- الحدائق والبساتين :

كان حرص شعراء العصر العباسى على الأخذ من واقعهم بما يكشف عن حضارتهم واختلاف حالهم عن أحوال كثير من العصور السابقة ، فكان طبعاً أن يظهر في شعرهم تلك المظاهر التى تدل على الترف والنعيم والجمال ومن تلك المظاهر خروج الإنسان إلى الطبيعة واستمتاعه بكل ما حباه الله من مناظر تسر العين وتبهج القلب ، ولذلك " كان جديراً بالشاعر الأمير أن يكون حظ الرياض والثمار والأزهار والمطر من شعره عظيمًا ، ومن أولى منه بذلك وهو المتقلب بين فنون النعم والجنات ، والصائد الطارد وراء الصيد فى الفلوات ، والمنتقل يتنسم فى الربا والبساتين أنفاس الزهر ، المتفكه بلذات الثمر" [١] . ولم تكن الطبيعة بما فيها من سماء وبساتين ورياض وزهر ونور ، بهجة للنفس ومتع للعين فحسب ، إنما أصبحت ملازمة للشاعر ، يديم النظر إليها ، ويسقط ما استكن في أعماقه عليها، فتشعر بشعوره بكاءً وفرحًا،ابتسامًا وترحًا، يقول : [٢]

أما ترى الأرض قد أعطيتك زهرتها مخضرة واكتسى بالنور عاريها
فللسماء بكاء فى حدائقها وللرياض ابتسام فى نواحيها

(١) عبد الله بن المعتز علمه وأدبه، د/عبد العزيز سيد الأهل، ط مكتبة نهضة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م ، ص٥٦.
(٢) شعر ابن المعتز،ج٢، ص٦٥٤.

الفصل الأول
الدراسة الفكرية

ويتضمن

١- تبريرات الشاعر للمشيب

٢- فلسفة المشيب

٣- محاولة إخفاء المشيب بالخضاب

٤- آمال العودة للشباب

٥- الأسى والحزن لمرور الشباب

٦- المشيب وفنون الشعر

٧- السياقات الحضارية وعلاقتها بالشباب والمشيب

التحولات فى حياة الشاعر من أثر المشيب:

" يدور الفلك دورته ،وتظل عواطف الرجل تجاه المرأة هى هى دون تبدل ، كذلك شأن المرأه نحوه ، فنزوع كلا الجنسين نحو الآخر فطري مركوز فى الطباع " [١] وتبقى الأنثى فى ذات ابن المعتز الشاعرة محور حياة يتلمس سحر جمالها ويستشعر زهو ألوانها، ويقبل على ربيع مراتعها ، وهى كانت تبادله ودًا بود ، وصفواً بصفو، ولكن بانقشاع سحب الشباب عنه، وانحسار ظلاله ، وسريان شعيرات المشيب فى فؤاده ، وأطراف رأسه، تتحول الأحوال ، وتتبدل الأمور ، فإذا بالغوانى الفاتنات تنفر عن حياض ملكه، وتنأى عن أسوار شموخه ، فيهزل ركب هواه ، وتذبل رواء أوراقه ، يقول : [٢]

إن تَربنى ياشر ملقىً على الفُرش وقد مَل عائدي وطبيبي [٣]
كُلما رُمت نهضة لم أجد في جسدى فضل قوة ترتقي بي
فبما عشت سالمًا ذا شباب يعث فى دُجاه صبحُ المشيب
وعلى مفرقي سلاسل يُصقلن بدهن في كل يوم وطيب

ولا يفتأ ابن المعتز يحدثنا عن أبرز الآثار المترتبة على تحول شعر رأسه من السواد إلى البياض جلَها تدور حول صد الغواني وإعراض الحسناوات ، وما أقسى ذلك على نفس الشاعر الذي كان بالأمس القريب مهوى محط أنظار الفتيات ، وحديث سمرهن واجتماعهن ، ومجال مغامراتهن، من كانت تهيم به العاشقات ، تتمنى وصله الفاتنات ، وأما الآن فتراه بعد غزو المشيب يقول : [٤]

(١) الشباب والشيب في الشعر العربي حتى العصر العباسي د/ عبدالرحمن هيبة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – اسكندرية ، ج١ ص٢٢٤.
(٢) شعر ابن المعتز، ج٢ ص٢٧٨.
(٣)"شريرة أو شر أو شرير" أسماء يسمى بها حبيبته وكلها أسماء مشتقة من الشر على سبيل الرمز وليس الحقيقة ، انظر ابن المعتز العباسى صوره لعصره، د / شلبى، ص٣٠٥.
(٤) شعر ابن المعتز، ج١ ص٩٢.

إن تريرَينـــــي خلفـــت أيـــام صـبا كـان نـاعم البـال لَـذا
ومشى الشيب قبل عقد الثلاثين فلمـــا انتهـــى إليهـــا أغـــذا
ونهـى عنـي العيـون المريضـات وأنضى انتهى ركب الهوى وأرذا

فقد خلف الشاعر " أيام صبا ناعم البال لذا "وأما الشيب" نهى العيون المريضات " ، وماذا يريد شاعر أمير تربى فى القصور ، وعايش الترف والنعيم من شبابه أكثر مما حوله عنه شيبه ، فأيام صباه كانت ناعمة لذيذة ، والعيون الفاترات المريضات تتابع خطواته، وتلاحق تنقلاته فكانت المفارقة بالمشيب ، مما آلمه وأحزانه.

وما أقسى ضحكة المحبوبة من حال حبيبها إذا خط الشيب شعره، فهى المقربة لقلبه وروحه ، من نما إحساسه على حبها وزاد ،ومن هام بها فى عالم الأحلام والخيال ، ومن ثم تصطدم مشاعره بصخرة الواقع حين يراها تسخر من شيبه مشبهة إياه بشجرالآبنوس المفضض، يقول: (١)

ضـــحكت شـــرٌ أن قـــد شـــبت وقالـت قـد فضـفض الآبنـوس
قلـــت إن الشـــباب فـــى لبـــاق بعـد قالـت هـذا شـباب لَبـيسُ
قـد تمتعـت مـا كفـاني إذ ربعـي مـن اللهـو والصـبى مـآنوس

فالحوار أظهر ما عليه نفسية كل من الحبيب والمحبوبة، هذا الحوار الذي كشف عن سر عذاب الشاعر بهذه التحولات التي طرأت على مظهره ممثلة فى المشيب ودلالاته ،والشيب وعلاماته؛ ولذلك راح يؤكد لها أن تلك التحولات الجديدة لا تعنى موت مشاعره أو فناء أحاسيسه " فقد تمتعت ما كفاني " "وربعي من اللهو والصبى مأنوس" وقد تيقن الشاعر أخيراً من عدم جدوى هذا الحوار الذى يحاول أن يثبت به ما لا تراه محبوبته، ومن ثم أقر بالحقيقة التي عليها منطق حبيبته يقول : (٢)

(١) شعر ابن المعتز ، ج٢ ص ١٥٧.
(٢) السابق، ج٣ ص ١٥٧.

قد دام من شره عنه الصدود فوصلها منها بعيد بعيد
باعته لما أن رأت شيبه فى سوق من ينقص لا من يزيد

فالتكرار " بعيد بعيد "يوحي بانزياح البعد ومساحته المكانية والزمانية ، ومن ثم أمل فى الوصول ولا رجاء فى القرب ، وأكد ذلك بالماضي " باع "الذى يدل على التحقق والثبوت ، وفيه حدث وزمن، فكلما تجدد الزمن تجدد الحدث بالبيع " فى سوق من ينقص ولا يزيد "

ويبدو أن هذا طبع النساء ، دائماً ينفرن من الرجل إذا لحقه المشيب ،وبدت علاماته على رأسه ،قبل أن يتأكدن من رواء قلبه، وشبابه مشاعره وعواطفه، يقول ابن المعتز فى أخرى لما رأت شيبه: (١)

أنكرت سلمى مشيباً علاني ورأتني غير ما قد تراني
أشرق الشيب على لَمتي وشباب المرء ظل الزمان

فسلمى كالأخريات " أنكرت " فإنكار العلاقة لمجرد " أشرق الشيب على لمتي " يؤدي إلى حزن الشاعر وألمه .

ومن ثم يقر بحقيقة مشيبه وحتميته ، يؤكد على غصات الألم التي وخزته من جرائه ، يقول: (٢)

أرى كل يوم فى ظلام مفارقي شهاب مشيب باقي الأثر منقضا
وكانت يد الأيام تفتل مرتي فصارت يد الأيام تنقضني نقضا
وفارقني ملك الشباب فأصبحت عيون المها الإنسي تلفظني غضا

الأبيات فى مجملها ، تتضمن تعبيرات حوت صوراً إيحائية تجسد مدى الآلام والآهات التي أصدرها الشاعر فى زفراته الحارة ، وهو يرى آثار التحولات من سطوع شهاب الشيب وقد أقض مضجعه ، وأوجع فؤاده .

فانظر إلى آثار فعل أيام المشيب فى نفس الشاعر وانكسار روحه " فارقني ملك الشباب " ، " عيون المها الإنسي تلفظني " ، " سلاح الدهر

(١) شعر ابن المعتز ج٣ ص ٩٩.
(٢) السابق، ج٢ ص٣٣٨.

قطعني جرحا وأوجعني عضا " ومن ثم كانت مفارقة الأيام فى فعلها " كانت تفتل مرتي ، فصارت تنقضنى نقضا "

وما أقسى فعل المشيب فى نفس ابن المعتز فى مثل قوله: (١)

وأصبحت معتل الحياة كأنني حسير وراء السابقات تعثرا
أذم مشيبا بالخضاب كأنه حريق تفشى هامتي وتسعرا
حنتني خطوب الدهر حتى كأنني أسير رأى وجه الأمير فكفرا

فللصورة دور بارز فى هذه الأبيات ، كشفت عن معاناة الشاعر بالمشيب ، فالأولى وهو فى حالة اعتلال " فكأنه حسير وراء السابقات تعثرا " فالحسير هو العيي ،والسابقات هى الخيول ، فهو عاجز عن اللحاق بتلك المسرعات بعد أن كان يبلغها ، والثانية انحناء ظهره بخطوب الدهر ، فكان كأسير رأى أميرا فكفرا ، أى انحنى أمامه بعد أن وضع يده على صدره يتطامن له، ويبدي خضوعه له.

ثم انظر إلى هذا الأثر الطريف المترتب على قدوم المشيب ، يقول ابن المعتز : (٢)

قالت وقد راعها مشيبي كنت ابن عم فصرت عما
استهزأت بي فقلت أيضاً قد كنت بنتا فصرت أما

فقد بلغت السخرية أن يعاير كل منهما الأخر بشيبه ؟ فيكون الأثر المترتب على قدوم المشيب إلى رأس الشاعر " كنت ابن عم فصرت عما " ويكون الأثر المترتب على شيب شعر محبوبته " كنت بنتا فصرت أما "

١- تبريرات الشاعر للمشيب:

ولما كانت تلك المشاعر المتبرمة والأحاسيس الملتهبة من شدة تفشي الشيب فى رأسه وشبوب البياض بمفرقه، ولم تكن نفسه مهيأه لقدومه كانت صدمته شديدة، جعلته في حال من الاضطراب النفسي، ومن ثم أصبح في وضع المدافع عن شيبه محاولاً إيجاد تبريرات لظهوره فيجعل محبوبته "

(١) شعر ابن المعتز، ج١ ص١٠٧.
(٢) السابق، ج٣ ص ٣٦٨.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

شرير " أحد أسباب غزو المشيب مفرقة، فقسوة فعالها وجفاؤها جعل سريان الشيب يدب فى رأسه يقول : (١)

عـــــذبتني باعتلالـــــك وطـــول عمـــرى مطالـــك
وزدتنـــــــي بســـــؤالك تباعـــدا مـــن نوالـــك
يـــا ليـــت حـــالي فـــى الحـــب ياشـــــرير كحالـــــك
لا تنكـــري شـــيب رأســـي فإنـــه مـــن فعالـــك

فالمشاعر المتباينه والعواطف المتعارضه والأحاسيس المتضاربة ما بين الرجاء والأمل والبعد والقرب والمماطلة والإجابة كلها مشاعر أقلقت الشاعر وأرقت مضجعه وأغمت نفسه وأحزنت روحه فعجلت بقدوم المشيب واحتلال شعر رأسه.

ويخوض ابن المعتز فى تقديم المبررات التي أشعلت الشيب فى رأسه، فإذا كانت محبوبته سبباً من أسباب تقدمه فى السن وبياض رأسه بالمشيب؛ فهناك من يؤازرها ويعاونها وهو الدهر الذى تشبه أفعاله أفعالها، فهى متقلبة ما بين الطوع والالتواء، والقرب والجفاء وكذا الدهر عارم صارم فى تقلباته فيقول مبيناً شيئاً من عجائب الدهر وأهواله: (٢)

وألاح شـــيب الـــرأس دهـــر عـــــارم جـــــم العجائـــــب
يـــدعو إلـــى الأمـــل الفتـــى والمـــوت أقـــرب منـــه جانـــب
ينبـــو علـــى طـــول العتـــاب فقـــد مللـــت فمـــا أعاتـــب
مـــا عـــابني إلا الحســـود تلـــك مـــن خيـــر المناقـــب
وإذا ملكـــت المجـــد لـــم تملـــك مـــودات الأقـــارب
والمجـــد والحســـاد مقرونـــان إن ذهبـــــوا فـــــذاهب

فنفس ابن المعتز عالية، وهمتها كبيرة، إنها تنشد المجد والذكر وعلو المكانة والمنزلة فهل يتركها الدهر تنعم بما تأمل ؟ وهل يتركها تبلغ ما يريد ؟ لقد سلط عليه حساده وأقاربه يتمنون زوال ما عنده من النعم إليهم بعد أن

(١) شعر ابن المعتز، ج١ ص ٣٣٣.
(٢) السابق ، ج٢ ص ٢٧١.

امتلأت قلوبهم حقداً ونفوسهم غيظاً، وإذا كان هذا حال أقاربك تجاه ما تحب وتتمنى ، فلا شك سوف تحزن النفس وتتعب الروح ويتألم القلب فيتبدل سواد الرأس شيباً.

٢-فلسفة المشيب :

وتقودنا محاولة تبرير ابن المعتز لظهور المشيب فى رأسه إلى البحث عن رؤية الشاعر الفلسفية لهذا المشيب وقد راجت سوق الفلسفة فى عصره عن طريق الترجمة واختلاط الثقافات وتلاقح الأفكار، وعن طريق الفلاسفة الذين كانوا يحضرون مجالس الخلفاء، ولا شك أن ابن المعتز قد تكونت لديه ثقافة أصبح قادراً بها على أن يرى رؤية فلسفية لقضية المشيب.

يقول وقد ظهر الشيب فى رأسه: (١)

صدت شرير وأزمعت هجري وصغت ضمائرها إلى الغدر
قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

" فهذا غبار وقائع الدهر " تعنى حتمية وقوع المشيب للمرء الذى يعيش زماناً والزمان متقلب لا يثبت أو يدوم فمن سره زمن ساءته أزمان وهذه السوءة هى وقائع الدهر التى طالمه جادلها الشاعر ونافحها وهى لا تتركه مستقراً متنعماً وتكون نتيجة تلك الوقائع ظهور المشيب وقدومه وانتشاره فى لمة رأسه.

ويكرر الشاعر تلك الفلسفة مما يستتبع توكيد الفكرة وتثبيتها فى ذهن الملتقى، يقول: (٢)

نكرت نحواى وهو من فرط الأسى لفراق إخوان على كرام
وتعجبت للشيب لا تتعجبى هذا غبار وقائع الأيام

فمشيب الشاعر من غبار وقائع الأيام وإذا رجعنا للأبيات نرى لماذا طلب الشاعر من محبوبته ألا تتعجب من مشيبه؛ فقد ذكر لها أنموذجا من غبار وقائع الأيام " لفراق إخوان على كرام " فالحياة صحبة ولا أغر من

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٦٨.
(٢) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ٣٧٢.

صحبة الإخوان الكرام فإذا فقدهم الشاعر فاضت آلامه وأحزانه واهترأت نفسه وروحه وأبيض سواد شعره.

ويقول مؤكداً: (١)

أنكـرت هنـد مشـيبى وولـت بـدموع فـى الـرداء سـجوم
فاعـذرى ياهنـد مشـيبى بهمى إن شيب الرأس نور الهموم

فالهموم والآلام من العجلات بقدوم المشيب وما أقسى وأكثر ما يلقى الإنسان من هموم الحياة وآلامها، ثم أليس هند بدموعها فى الرداء سجوم عند رؤية مشيب الشاعر مما يزيده شيباً وهماً؟

ويؤكد ابن المعتز فى فلسفته على حقيقة اتساع العقل والرؤية والتفكير في هذه المرحلة التي يجمع فيها خلاصة تجاربه وعصارة أرائه وأفكاره، فيقتنع بها الناس يقول (٢):

وسـع الشـيب النهـى فأصـاب منـزلاً
والصـبا ممتلـىء حاجـة وأمـلا
مـزج الـدهر لنـا صـبراً وعسـلا
إنمـا سـيب الفتـى ناصـح إن فعـلا
مـا علـى الناصـح أن ينتهـي مـن جهـلا

ففلسفة المشيب الحكمة والعقل وفلسفة الشباب الحاجة والأمل؛ لذلك ترى حياة الإنسان تسير ما بين المرارة والعذوبة " مزج الدهر لنا صبراً وعسلا " ، فلا بد أن تعيش بين المرحلتين وأن تتقلب فى نعمة تسير ما بين المرارة والعذوبة

إذاً فحتمية المشيب واجبة فلا ينبغى للإنسان أن يحزن أو يفزع، يقول(٣)

لابـد للشـيب أن يبـدو وإن حجبـا عدوا سنى تروا شيبى وإن خضبا

(١) السابق، ص ٢٠٥.
(٢) نفسه ، ج١ ص ١٥١.
(٣) شعر ابن المعتز ج٢ ص ٢٤.

فمهما حاول أن يستر شيبه أو يعالج آثاره فلن تجدى كل المحاولات، وحتى إن أفلحت محاولة إخفائه بالخضاب، فتقدم عمره وازدياد عدد سنوات حياته دليلاً على ما يخفى أو يحاول أن يستر.

وتتجلى رؤية الشاعر الفلسفية فى إيجاد علاقة بين سن المرء فى مرحلة الشباب وعقله فى مرحلة المشيب، فكل سنة من سنوات الشباب تحمل معها تجربة خاضها المرء يستخلص منها العبرة، فيكون تعدد تجاربه فى شبابه انزياحاً فى مجال عقله ومداركه أثناء شيبه يقول (١)

وما ينتقض من شباب الرجال يزد فى نهاها وألبابها

فعلاقة التضاد بين " ينقض ويزد " دليلاً على فلسفته واتساع مرافىء فكره وانزياح أفاقها.

على أن ابن المعتز إذا كان يؤكد حتمية قدوم المشيب؛ فإنه لا يترك الفرصة ليجهز على آمال الإنسان وأحلامه، ومن ثم يدعو المرء لأن يعيش مرحلتي الشباب والشيب معاً فيقول: (٢)

صاح بالوعظ شيب رأسي مضى حثني للتقى وقلبي بطىء
وأراني وجه المنية من قرب ولكنني عليها جري
سحرتني الدنيا وعادت لذاتي فجسمي كهل وقلبي صبي

فإذا كان الشيب واعظاً بالتقى يدعو إلى التفكير فى الموت؛ لأنها النهاية المحتومة فإن سحر مرحلة الشباب يجب أن يبقى لمن أراد أن يحيا " فجسمي كهل وقلبي صبى " فهذه المتناقضات فى شخصية ابن المعتز تدل على ما هو عليه من اضطراب نفسي وقلق وتوتر فى هذه المرحلة العمرية.

وقد أكد فى فلسفته على أن الإنسان إذا كانت لديه العزيمة والإرادة والرغبة وحب الحياة، فإنه يمكنه الجمع بين ظاهر ما فى الرأس من مشيب وباطن ما فى القلب من شباب يقول: (٣)

(١) السابق ج١ ص ١٩.
(٢) شعر ابن المعتز، ص ١٩٦.
(٣) السابق ،ج٣ ص ١٦٥.

قـــد أنكـــرت هنـــد مشيـــباً عـــم رأســـي واســـتعر
يـــا هنـــد مـــا شـــاب فتـــى وإنمـــا شـــاب الشـــعر

ثم انظر إلى هذه الرؤية الفلسفية لابن المعتز فى حديثه عن فقد الشباب يقول: (١)

ولقـــد تأملـــت الحيـــاة عظـــيم فقـــدان التصـــابي
فـــإذا المصـــيبة بالحيـــاو هـــى المصـــيبة بالشـــباب

إن من أعظم الأمور وقعاً وأشدها أثراً فى نفس ابن المعتز " فقدان التصابي " ومصيبة الحياة هى المصيبة بالشباب، إن مصيبة الشاعر هى التحسر والأسف على أيام الشباب التي تذهب وتنقضي، فهى من أكبر المصائب التي تواجهه؛ لأنها تقربه من مرحلة المشيب وما أقساها على نفسه وروحه.

ومن ثم تره يفضل العمى على المشيب لو أنه خير بين الأمرين يقول:(٢)

كفـــى ولا تكثـــري ملامـــي ولا تزيـــدي العليـــل ســـقما
مـــن شـــاب أبصـــرته الغـــواني بعـــين مـــن قـــد عمـــى وصـــما
لوقيـــل لـــي اختـــر عمـــى وشـــيبا أيهمـــا شـــئت قلـــت أعمـــى

فالبيت الأخير الذي تضمن اختيار العمى على المشيب قرار يكشف عن نفسية أرهقها صدود الغواني ووخزهن مشاعره بكلمات اللوم والسخرية، كلمات تزيد العليل علة والسقيم سقماً وليس له فى ذلك ذنب سوى ظهور شعيرات المشيب !!!

٣-محاولة إخفاء الشيب باخضاب بين الفشل واليأس:

لابن المعتز محاولات فى إخفاء شيبه؛ تشبثاً بظلال الشباب والصبا، وتعلقاً بمعاني القوة والفتوة، وما ذلك الإخفاء للشيب إلا غطاء نفسى قبل كونه حسى، يزيل عن الشاعر شيئاً من وطأة ألم المشيب إذا تبدى فى حلكة مفرقه، ولم يكن ابن المعتز سابقاً إلى ذلك غيره فهى جبلة النفس البشرية التى

(١) السابق ، ج٣ ص ١٣٦.
(٢) شعر ابن المعتز، ص٣٦٩.

جبلت على إخفاء المشيب " وقد تحدث الشعراء وهم أرهف الناس حساً وأرقهم عاطفة عن شيبهم وخضابهم، حديثاً ينم عن آساهم لهذا الوافد الذى أجبرهم على تبديل صبغته بالسواد الحبيب على نفوسهم " .[١]

وتشتد وطأة الحزن والأسى فى نفس ابن المعتز حين تلوح فى مفرقه علامات الشيب ويأذن ملك الشباب وريعانه فى الذهاب، فإذا بالغواني يصددن عنه، ويغضضن الطرف عنه شذراً وازدراء، مما ألهب جذوة حشاه، وضعف هموم قلبه، وقرح جروح فؤاده، ومن ثم تراه يعمد إلى محاولة إخفاء هذا الضيف الثقيل؛ لعله يخدع الحسناوات ويجذب الجميلات يقول: [٢]

صـــرحت بالجفـــاء أم حبـــاب حـين باشـرتها بـبعض الخطـاب
قلـت: لـم ذا وقـد رايتـك حينـاً لا تملـين عشـرتى وعتـابي؟
قالـت: الشـيب قـد أتـاك فأقصـر عن عتابي فلست من أصحابي
فتعللـــت بالخضـــاب لأحظـــى عنـدها سـاعة بلـون الخضـاب
فرأتـــه فأعرضـــت ثـــم قالـــت: سـتر سـوء علـى خـراب يبـاب

فقد صرحت بجفائها وأزمعت صرمه والرحيل عن مرابعه، وكان من قبل خير جلسائها ورفقائها، أما اليوم فهى تشيح بوجهها وتوغل فى إيلامه بقولها " لست من أصحابي " حين بدا شبح المشيب فى مفرق رأسه ، والذى حاول ستره بالخضاب ولكن دون جدوى، بل آل حالها إلى البعد والتهكم والإيلام بقولها " ستر على خرابٍ يباب ".

وعلى الرغم من أن ابن المعتز قد يخفي شيبه بالخضاب لكنه يعلم أنه غطاء مؤقت يضمر تحته حقيقه مرة يقول: [٣]

خضبت بياض الشعرخضبة جاهد وهيهات ما يغني الخضاب وينفع
بلـى زاد فـى عيـب المشـيب لأنـه يقال : خضيب أشيب الرأس أصلع

(١) الشباب والشيب فى الشعر العربى حتى العصر العباسي د عبدالرحمن هيبة ج١ / ١٥٤.
(٢) شعر ابن المعتز، ٢٣٧/٣.
(٣) السابق، ج٣ ص ٣١٧.

فهو يحاول جاهداً إخفاء شيبه ولكن دون جدوى، وهذا مما يزيده ألما ويعظم أساه وتزداد معاناته حين تتقافز إلى مسامعه كلمات السخرية والإشمئزاز والتهكم " يقال خضيب أشيب الرأس أصلع" وفى بداية الأمر كان يحاول إخفاء مشيبه بالخضاب مع تيقنه من عدم جدوى ذلك يقول:(١)

ظلمت إذا طالبت شيئاً وقد فاتا تقابل شيباً بالخضاب وهيهاتا

وقالوا امرؤ قد شاب وأبيض رأسه ولابد يوما أن يقولوا امرؤ ماتا

فهيهات أن يخفى الخضاب مشيب رأسه فقد ولى الشباب بأماراته وجاء المشيب بعلاماته ولابد أن يعيش كل مرحلة بما فيها مع اعترافه أن مرحلة المشيب هى موت بالنسبة للإنسان موت لرغباته وأحلامه موت لمشاعره وأحاسيسه موت لكل ما كان يقوم به شبابه وعنفوانه.

فالخضاب إن كان ستر وغطاء للشيب إلا أنه عند ابن المعتز حجاب فاضح وستر مؤقت لا يعول عليه يقول:(٢)

تولى الجهل وانقطع العتاب ولاح الشيب وافتضح الخضاب

وقد يرفو ثوب شيبه ولكنه يعلم يقيناً ليس الشيب رفو يقول:(٣)

ورفو الشيب بالخضيب وما للشيب من رفو

فلا فائدة من رفو ثوب الشيب وترقيعه يقول: (٤)

وأصبحت أرفو الشيب وهو مرقعلي وأخفى منه ما ليس خافيا

ويبادر ناصحا من قد يحاول تخضيب لحيته بأسلوب مقنع منطقي يستخدم فيه المقابلة والتضاد يقول: (٥)

(١) شعر ابن المعتز، ص ١٤٢.
(٢) السابق ،ص ١٢٩.
(٣) السابق ،ص٣٩٨.
(٤) السابق ،ص ٤٠١.
(٥) السابق ،ص ١٨٠.

فلحيته " مسودة " بفعل الخضاب ولكن تضمر باطنها " ضمير أبيض " وهو الشيب فإذا نام الخضاب بادر الشيب بالركض والسريان فى جوانب لحيته، وحينها لا يكون تسويد لحيته إلا من باب التزوير والخداع، يقول :(١)

ولحية كأنها غرابزورها التسويد والخضاب

ويؤكد ابن المعتز رفض الخطاب وأنه مهما حاول أن يستر به مشيبه فلن تفلح محاولاته فشيبه لن يرحل إلا برحيل صاحبه، يقول: (٢)

يا خاضب الشيب بالحناء تستره سل الإله له سترا من النار
لن يرحل الشيب عن دار يحل بها حتى يرحل عنها صاحب الدار

فتجارب الشاعر وما انتهت إليه حياته زادت فى زهده، فهو يرى أن أفضل ستر للمشيب يكون فى الآخرة حين يستر الله صاحبه من النار، وأما محاولات تخضيبه فهى فاشلة؛ لأنه مقيم حتى تنتهى حياة الإنسان.

ويأس الشاعر من محاولة تخضيب شعره يجعله يلقي بمشكلته على المتلقي لعله يجد له مخرجا أو وسيلة تخفف من وطأته على نفسه يقول: (٣)

حلية الشيب فى عذاري تلوح وفؤادي في الغي بعد جموح
قبحت شهبة المشيب كما أن الخضاب الكميت أيضا قبيح
ذا شباب ملفق ليس يخفى ومضى ذلك الشباب الصحيح
ويح نفسي يا قوم كيف احتيالي شاب رأسي وصد عنى المليح

فالإنشاء بالنداء " يا قوم كيف إحتيالي " رجاء أن يغيثه أحد ويخلصه من كبوته ويقيله من عثرته، ولكن ماذا يفعل الملتقي وقد سد عليه المبدع الطريق ؟ ماذا يفعل به بعد أن نعت الشاعر الخضاب الكميت أنه قبيح ؟ وأنه إذا خضب " فذا شباب ملفق "

ولما يأس الشاعر ترك شيبه وراح يتحايل بتسميته مسميات أخرى؛ لعله يخدع العذارى والغواني يقول:(٤)

(١)شعر ابن المعتز، ص ١٢٨.
(٢) السابق ،ج٣ ص ١٧٥.
(٣)السابق، ج٣ ص ١٤٧.
(٤) شعر ابن المعتز، ص ١٣٠.

رأت طالعا للشيب أغفلت أمره ولم تتعهد أكف الخواضب
فقالت أشيب ما أرى قلت شامة فقالت لقد شامتك عند الحبائب

فإغفال أمر المشيب من الشاعر؛ ليأسه من محاولة إخفائه، وتحايله على محبوبته التي تساءلت " أشيب ما أرى "؛ للإنكار، فيأتي الخداع " شامة " فهل خدع الشاعر محبوبته أم هى من لديها رغبة التصديق لتدوم علاقتها بمحبوبها؟

٤-آمال العوده للشباب بعد المشيب:-

ولعذوبة مرحلة الشباب التي ما زال ذكراها عالقاً بالذهن يبهج النفس ويسعد الروح، فإن آمال الشاعر كبيرة فى أن تعود إليه بما حوت من أنس وبشر وجمال حتى لو اضطر إلى بيع أيام مشيبه، يقول: (١)

من يشتري مشيبي بالشعر الغربيب
من يشتري مشيبي وليس بالمصيب
نور الرءوس واللحى وظلمة القلوب
أين الغواني والصبى والعذر فى الذنوب

فما أصدق ابن المعتز من تاجر ! إنه يبيع مشيبه منبهاً المشتري أنه " ليس بالمصيب " ثم راح يعدد له عيوب السلعة " نور الرؤوس واللحى ، ظلمة القلوب " فالتضاد أوضح نفسية الشاعر فإذا كان بياض المشيب نورا ظاهرا فإنه ظلمة للروح والقلب، وابن المعتز يعرض سلعته ليس من أجل الحصول على المال؛ ولكن مقابل الحصول على ما فقده من أيام الشباب والصبا بكل ما فيها من مزايا " الغواني والصبى والعذر فى الذنوب "، إنها مرحلة الشباب التي تقبل فيها الغواني ويرتكب فيها حماقات تعذر ذنوبها.

ولذلك ليس لابن المعتز إلا التغني بأيام الشباب، واستعذاب ذكرياته، وإرسال الآمال لعلها تروي شيئاً من صدى الروح يقول: (٢)

(١) السابق، ج٢ص ٤١١.
(٢) شعر ابن المعتز، ج١ ص٢٠٥.

أيـا ويحـه مـا ذنبـه إن تـذكرا سـوالف أيـام سـبقن وأخـرا
وسكرة عيش فارغ من همومه ومعروف حال لم يخف أن ينكرا
وعصر شباب كان صبغة حسنه وظلا من الدنيا عليه منشراً

" أيا ويحه " نداء للذات الشاعرة التي طافت بها الذكرى واستيقطت أفكارها على أحلام الماضى أملاً فى العودة إلى ما كان فيها من ظلال وجمال ولعل فى بوح الشاعر بهذه العبارات ما يكشف عن فيضان الروح بشعور الحسرة من تولى هذا الزمن الصبى الفتى وذلك العصر الزاهي الذهبي نجده فى قوله " سكر عيش " " فارغ من همومه " " معروف حال " "عصر شباب كان صبغه حسنه " " ظلاً من الدنيا منشّراً ".

وكيف لا تمتد آمال ابن المعتز و أحلامه فى تمني عودة الشباب بعد انقضاض شبح المشيب، كيف لايتحسر على فوات أيامه الرغيدة ورحيل أوقاته السعيدة ، فياله من زمن ذاق بانصرامه مرارة الثكل والحرمان، فأين أجواء صافية، وأين أرواح ضافية، وأين نظرات عذبة حبيبة، ودنان وكؤوس قريبة ؟!! يقول [١]

شاب رأسي وذقت ثكل الشباب ولعهدي به كلون الغراب
إذ ردائي أمس به الأرض وإذ حشو نظرتى أحبابي
ويغادیني السقاة بكأس نقب الماء وجهها بحباب
تابعا شره الشباب إلى حيث انتهت بي سقيا لعمر الشباب

ولكن دائماً لحظات الأنس بالشباب قصيرة، وأيام السعادة بها تنصرم مسرعة مدبرة فى حين يطول ليل النحيب على رجليها وفراقها، يقول:[٢]

مدة فى الشباب أقصر من مدة ليل يطول فيه انتحابي

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٢٣-١٢٤.
(٢) السابق، ج٣ ص ١٣٦.

فالشباب نعمة كبرى، وفرصة لاغتنام اللذات وقضاء أطيب الأوقات، يقول: (١)

بان الشباب وفيه اللهو والفرح وأقبل الشيب فيه الهم والترح
فعد ذكر الصبى واهجر لذاذته واسوءتا من بياض فوقه قدح

فعلاقة التضاد بين مرحلتي الشباب والشيب " بان الشباب أقبل المشيب " يتبعها التباين فى الأثر المترتب عليها " اللهو والفرح والهم والترح " ومن ثم كان الإنشاء بالأمر " فعد ذكر الصبى " رجاءً ألا يزيد همومه وأحزانه بتذكر أيام شبابه.

وفى اندفاعه نحو أيام الشباب وانطلاق آماله فى العودة إليها وتذكر معاهد الصبا لا يفتأ يتغنى بما فيها من مميزات وبما يلازمها من لهو وشهوات وتصابي ولذات، يقول: (٢)

لا مثل أيام مضين بلهوها منكورة أعطت فؤادي ما اشتهى
أيام عمرى فى سني ورتبتي مني وسلطاني على حدق المها

فابن المعتز شديد التيه والعجب بما كان يتمتع به فى شبابه من حسن و جاه وبهاء يستشفع بهما لدى الحسناوات، يقول:(٣)

وشباب كان يعجبني وبه قد كنت لعّابا
جاه حسن ما رددت به وشفيع قط ما خابا

وفى معرض مدحه لزمن الشباب، وتغذيه بما حواه من ظلال وارفة، وأوقات منعمة، يستعذب لسانه دعاءً صادقا له بالسقيا والرواء، يقول: (٤)

سقيًا لعصر شبابي إذا لمتي سبجية (٥)
وإذ أمد ردائي بقامة خطية

(١) السابق، ص ١٤٩.
(٢) شعر ابن المعتز، ج١ ص ١٩٠.
(٣) السابق، ص ٣٥.
(٤) السابق، ص ٢٦١.
(٥) سبجية: أى فيها سواد وهى كلمة فارسية معربة " لسان العرب " سبج .

وكيف لا يستعذب لسانه دعاءً صادقا لهذا الزمن الحيوي من حياته بكل ما فيه من رموز القوة والتيه والسلطان والجمال " لمتي سبجية " " أمدد ردائي " " قامة خطية " ويكرر دعاءه لعصر الشباب بالسقيا ، فى حين يبقى طالبه صاديا ظمآنا، يقول: (١)

سقى الله أيام الشباب وعصره سقتني تصريداً لو تشف للصدى

٥-الأسى والحزن لمرور الشباب وقدوم المشيب :

ونتيجة يأس الشاعر من عدم عودة شبابه، واستقراره فى مرحلة المشيب ،مهما حاول أن يخفيه بالخطاب،أو يبتاع شعراً أسود بأبيض ، نراه يبكي على أفول نجم الشباب ،ويئن لاشتعال الرأس بالمشيب، يقول : (٢)

مضى شبابك ما قد مضى فلا تكثرن عليه البكا
وأشعل شيبك مصباحه لست الرشيد فيما ترى

فتكرار الفعل " مضى " دليل على تأكده من مرور فترة الشباب وانقضاء عهدها الزاهي، ومن ثم كان الإنشاء بالنهي " لا تكثرن عليه البكا " إذا لاجدوى فلن يعيده،فقد تمكن الشيب ، واشتعل الرأس بياضا، وانحنى للمشيب.

وقد أكد على حقيقة ألا جدوى من البكاء، فمهما بكت العين فلن يعود الشباب أويوفى حقه، يقول :(٣)

شيئان لوبكت الدماء عليهما عيناى حتى تؤذنا بذهاب
لم تبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقه الأحباب

فإن تحل الدماء بديلا عن الدمع، فهذا يعني جفاف العين من كثره بكائها حتى أذنت بالعمى ، ومع ذلك " لم تبلغ المعشار من حقيهما " وقد قرن فرقة الأحباب مع فقد الشباب وبكاها؛ لأنها تكون سببا فى مشيب الرأس ، لتكاثر ما استكن فى النفس من الهموم والأحزان لفراق أحبابه. وما أقسى ألم الشاعر

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ٣١.
(٢) السابق، ص ١١٨.
(٣) السابق، ص ١٣٨.

وحزنه على مضي شبابه ومجيء شيبه، نستمع إليه وهو يبث إحساسه المرير إلى هذا الضيف الثقيل ، فيقول متخذا من التضاد اللفظى سبيلا للإفصاح عما فى الذات : (١)

قلت لشيبي إذ بدا ... وابيض مني المفرق
يا فضة لكنها ... كاسدة لا تنفق
يا نهاراً لا يرجى ... صبحه من يعشق
لا مرحبا لا مرحبا ... أنت العدو الأزرق
إن الشباب خاننني ... فالرأس مني أبلق
أين غراب أسود ... أطرته يا عقعق
قد كل مقراضي ... وأمسى عارضي يستحلق

فالمشيب قد جاء فجأة " إذ بدا " وإذا فاجأك زائر ثقيل أو جاءك ضيف غير مرغوب فيه " لا مرحبا لا مرحبا " تأكيد بعدم الترحاب ، بل "أنت العدو" على الرغم من أن هناك من قد يرى فى أمارته حسنا وجمالا، وتخلله فى السواد طهراً ووقاراً، فبياضه " فضة لكنها كاسدة لا تنفق " وهو "نهار لا يرجى" ثم يبدي الشاعر حزنه من شبابه " فقد خانه" ورحل عنه فجأة وكل فؤاده حين كل مقراضه ، فذهبت مقومات الأنس والبهجة، وتلاشت مسوغات السعادة والفرح.

ويعد الشاعر ذهاب الشباب موت لهواه وأحلامه، وأنه مهما حاول فى شيخوخته إظهار أثر من آثار مرحلة الشباب ، فسوف يقابل بالسخرية والإستهزاء ،يقول : (٢)

مات الهوى مني وضاع شبابي ... وقضيت من لذاته آرابي
وإذا أردت تصابيا فى مجلس ... فالشيب يضحك بي مع الأصحاب

فإذا كان ضياع الشباب موت للهوى والأماني، وانقضاء للذات والمآرب، فإن ما يزيد فى آلام الشاعر ويبعث أوجاعه أن يضحك الشيب منه مع

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص١٨٥.
(٢) السابق. ص ١٢١.

الأصحاب؛ إنها السخرية والإستهزاء من أمل العيش حتى على أنقاض الشباب واجترار ذكريات التصابي.

ومما يؤلم الشاعر أن الشباب قد ولى مودعا وان المشيب قد أقبل مسرعا وهو بعد لم يستوف حظه من الحب والحبيب، يقول: (١)

عجـل شـيبي علـى شـبابي ولـــي ديـــون علـــى الحبيـــب
لمـــا تـــولى الصـــبا ســـريعا صـــفقت وجهـــي علـــى المشـــيب

فللشاعر " ديون على الحبيب " لم يستوفها وقد أخذ على حين غرة دل على ذلك التضاد اللفظى " عجل شيبي ، تولى الصبى " ومن ثم " صفقت وجهي على المشيب " ولكن ما ذنب وجهه؟ أم انه الغيظ والحقد وغليان النفس ؟

وتسكن شحنات النفس وتسكن النبضات وتغفو الخلجات ولكن لا تغفو ذكريات الشباب والصبا فيبيت ليلة متأسيا على سرعة رحيلها ويستقبل صحبه متحسرا على انحسار ظلالها، يقول: (٢)

كـان لنـا ظـل طـواه شـارق مـن المشـيب فـانطوى ظـل الطـرب
كان الشباب ليل مسرور به وأصـبح الشـيب نهـار ذي الكـرب

ولعل فى اختيار ابن المعتز لغة شعرية من حيث اتخاذ إطار من التصوير البديعى والتضاد اللفظى بين " شارق من المشيب " و " ظل الطرب "وبين " كان الشباب ليل مسرور " و" أصبح الشيب نهار ذي الكرب " ما يفصح عن أبعاد نفسية تتجاذبها طرفي نقيض طرب الشباب وكرب المشيب.

٦-المشيب وفنون الشعر:

يأتى الحديث عن المشيب فى معرض بعض الفنون الشعرية، وأكثر هذه الفنون الزهد فلماذا؟

(١) السابق، ص١٣٩ .
(٢) السابق. ص١٣٩.

إن الزهد ورع وانقطاع عن متاع الدنيا وتوقف اللهث وراء شهواتها والاستعداد للآخرة والإقبال عليها بالأعمال الصالحة، وغالبا يأتى الزهد فى مرحلة متأخرة من عمر الإنسان وهى مرحلة المشيب فناسب الحديث عن المشيب فن الزهد؛ لأن العلاقة بينهما وطيدة والآصرة، قوية فهذا مجال وميدان لعمل ذاك، يقول ابن المعتز: (١)

أجـــارة بيتـــي إن حبـــك زور وقـد شـغلتني عـن هـواك أمـور
عرفت الذي قد كنت أجهل مره وشـبت وقـال الشـيب أنـت كبيـر
أيا بـاني القصر استعد لسفره ويـا حاصـر الأمـوال سـوف تطيـر

" فحبك زور " لأن الشاعر " قد شغلته عن هواها أمور " فما الذى شغله عن حب الجميلات والفاتنات وملاحقة الغيد الحسناوات ؟ إنه الشيب نهاية مراحل العمر حيث ينضج العقل وتتراكم التجارب وتصحو الضمائر فيرى الحياة على حقيقتها؛ ولذا جاء الإنشاء بالنداء " أيا باني القصر " ويا حاصر الأموال " ليفيق من غيه ويعود إلى رشده ويرى الحقيقة عارية كما رآها الشاعر.

ويؤكد ابن المعتز تلك الفكرة بصيغة مختلفة، يقول: (٢)

طـوى نفسـه عنـك الشـباب المزايـل وصـرت إلـى الشـيب الـذى لا يزايـل
وأمسـكت قلبـا منـك عـن هفواتـه فمـات التصـابي واسـتراح العـوازل
وودعت ألاف الهوى وانقضى الصبا وأسـلاك مـنهم بعـد ذلـك شـاغل

فتناقض وتضاد المرحلتين " الشباب المزايل – الشيب الذى لا يزايل " قد أدى بالشاعر إلى الزهد فى لذات الحياة " أمسكت قلباً عن هفواته ، مات التصابي ، ودعت ألف الهوى " فكانت السلوى عن كل ذلك بالاستعداد للمرحلة الجديدة وما تتطلبه فعال وأقوال .

(١) شعر ابن المعتز، ج١ ص ٤٥.
(٢) السابق، ص ١٩٤-١٩٥ .

ويعد ابن المعتز التفريط فى إتباع الشهوات واللهث وراء الملذات قبحاً فى ريعان الشباب، فكيف إذا مال الرأس للمشيب: (١)

ألم تر أن الدهر يلعب بالفتى ... ويأكل منه وهو من بعد آكل
يسير إلى الآجال فى كل ساعة ... وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حقا كأنه ... إذا ما تخطته الأماني باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبى ... فكيف به والشيب فى الرأس شامل

فالإستفهام " كيف والشيب فى الرأس شامل" إنكار فإذا فرط فى لهوه فى عمر الشباب فهل يبقى على لهوه فى عمر المشيب ؟ فالشباب طيش وجهل والمشيب عقل وحكمة، ومن ثم يخشى الموت أن يفاجئه دون أن يأخذ بطبيعة مرحلة الشيب وخصائصها وما يلزم هذه المرحلة من سلوك يلائمها.

وإذا كان الكثير من الشعراء قد ذموا المشيب وهجوه؛ لأنه يقعد بآمالهم ويحطم مساعيهم لتحقيق صبواتهم، وأنه مرحلة انتظار الموت، فإن من الطبيعى أن يكون الحديث عنه ملازماً لفن الهجاء، فما أقسى على المرء أن يهجوه الشعراء ببياض شعره بكل ما فى هذا الهجاء من دلالات كثيرة تدور حول قبح المنظر وبشاعة الصورة.

يقول ابن المعتز فى هجاء شخص يدعى أبو الطيب تعلق بجارية عجوز تسمى قشاش، وقد هجاها الشاعر بقبح هيئتها وخبث ريحها: (٢)

أبا طيب خبرت أنك بعدنا ... وقفت على قشاش فيما تقشش
عجوز كأن الشيب تحت قناعها ... على الرأس والأكتاف قطن منفش
خبيثة ريح الريق تحسب هدهدا ... يبيض بفيها ثاويا ويعشش

فهجا المرأة، ووصف شكلها المقزز للنفوس، والمنفر للعيون، فهول من منظر شيبها بعد أن سلط عليها الضوء لتجسيد عيبها وتشويه سوء منظرها،

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص١٩٦.
(٢) شعر ابن المعتز، ج١ ص ٦٧٥.

فشيبها على الرأس والأكتاف " قطن منفش " فتبدو وكأنها من الجان، بالإضافة إلى خبث ريح ريقها " كأن هدهدا ثاو بفيها " فما أنتنها من رائحة وما أسوأها من هيئة.

وتأتى الرؤية المخالفة لهجاء المشيب فى مديحه، فهناك من يرى فيه الحكمة وخلاصة التجربة والعودة إلى العمل الصالح ونهي النفس عن المنكرات وعدم التمتع بالمحرمات، وفى ذلك يقول ابن المعتز : [١]

أعاذل قد كبرت على العتاب وقد ضحك المشيب على الشباب
رددت إلى التقى نفسي فقرت كما رد الحسام إلى القراب

فإذا لم يكن للمشيب من مزية يمدحها بها إلا " رددت إلى التقى نفسي فقرت " فهذا يكفيه؛ فالقرار راحة فكأن النفس قد استراحت حين زجرها مشيبها عن آثامها وذنوبها فاطمأنت وسكنت؛ لأنها على طبيعتها وفطرتها.

٧-السياقات الحضارية وعلاقتها بالشباب والشيب:

كان لسياقات العصر العباسي الحضارية أثر كبير فى شعر ابن المعتز، ومن نماذج تلك السياقات مجالس الخمر التي زاد الإقبال عليها؛ نتيجة الحضارة وظروف العصر الاقتصادية، فمع وفرة الأموال وتحسن الأحوال المعيشية أصبح لدى المرء وقتا طويلا للفراغ يحاول تزجيته، فكانت تلك المجالس اجتماعا محببا للعديد من الندماء والرفقاء يصورون اجتماعهم ودنانهم وآنيتهم وتأثير خمرهم العجيب فى عقولهم ونفوسهم.

وقد ارتبط هذا السياق بمعظم فنون الشعر عند ابن المعتز وها هو أيضا مجال يتحدث فيه عن شبابه وشيبه يقول:[٢]

مضى الشباب فلست الدهر لاقيه استخلف الله صبرا منه إذ ذهبا
لولا المدامه والندمان فى غلس ودعت من بعده اللذات محتسبا

(١) السابق، ج١ ص ٥٨.
(٢) شعر ابن المعتز، ج٢ ص٥٢.

فالخمر ومجالسها وسيلة الشاعر إلى نسيان تولى الشباب وزحف المشيب على روحه وقلبه وفعاله، إنها أصبحت لذته الوحيدة التي لو فقدها ما بقى له شيئاً بعد تولي شبابه " ودعت من بعده اللذات محتسبا "

وعلى الرغم من قدوم المشيب بآماراته ورؤية الشاعر له أنه فلاح ، فإن حنينه يظل للخمر ومجالسها، **يقول:** (١)

كسدت وكنت أنفق فى الملامح وأمسى الرأس مبيض النواحي
ولكني أحن إلى التصابي وأنفر عن معاشرة القباح
ويدعوني المشيب إلى فلاحي فأمشي القهقري نحو الفلاح
ولكن لا تسألني عن حنيني إلى شاد ونـدمان وراح

فكم يبلغ حنين الشاعر إلى الشادي والندمان والراح ؟ أيدعوه مشيبه إلى الفلاح فيمشي القهقرى ؟ إن ذلك وسيلي لينسى ما أصبح عليه حاله " كسدت وكنت أنفق فى الملاح " " وأمسى الرأس مبيض النواحي " فما أقسى ذلك على نفسه الشاعره وكم أقض ذلك روحه ومشاعره.

إن الشاعر مستمر فى عاداته التي كانت فى ريعان الشباب فإذا كان التمتع باللذات واللهث وراء الشهوات ومعاقرة الخمر مع الندمان سمة من سمات شبابه فإنه يريد أن يبقى له أثر من تلك المرحلة لا أن تنقطع كل السمات بقدوم المشيب، يقول:(٢)

ومشمولة قد طال بالقفص حبسها حكت نار إبراهيم فى اللون والبرد
حططنا إلى خمارها بعد هجعة رحال مطايا لم تزل يومها تخدي
ملوك للذات الشباب تواضعوا ولم يخلفوا فيها بذم ولا حمد

ونتيجة طبيعية لتقدم العصر الحضاري فى مجال العمارة كانت القصور بروعتها وحدائقها وبساتينها، فلم يعد يعاين البيوت التي كان عليها العصر

(١) شعر ابن المعتز، ج١ ص ٢٤٠.
(٢) السابق، ج٢ ص ٨٤.

الجاهلي من سعف النخل أو الصوف أو الخيام؛ ولذلك كانت تلك البيوت تتحول إلى أطلال بمجرد أن يتركها أهلها، فكان البكاء على الأطلال العنصر الأول من عناصر بناء القصيدة العربية، وابن المعتز إن كان يسير فى شعره على النسقين المتأثر بالقديم وفاءً للتقاليد والمتأثر بالجديد، وفقاً لمقتضيات الحضارة إلا أن حديثه عن الشباب والشيب جاء مع الأخذ بأسباب الحضارة والتجديد فلم يقدم له بالمقدمة الطللية، يقول: (١)

جاء المشيب وما بعثت إليه ومضى الشباب وما بكاى عليه
كم ليلة عانقت فيها بدرها حتى الصباح موسداً كفيه
مازلت أشرب خمرة من خده وتحيتي تفاحتا خديه
وسكرت لا أدري أمن خمر الهوى أم كأسه أم فيه أم عينيه

(١) السابق، ج١ ص ٣٧٦ – ٣٧٧.

الفصل الثانى
الدراسة الفنية

ويتضمن:

١-البيئة وأثرها في الشاعر

٢-الصورة

٣-الوزن

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

١ – البيئة وأثرها في الشاعر

البيئة العربية بيئة طبيعية كمعظم البيئات، يجود بها الغيث حينا ويشح حينا آخر، وتخضر بعض وديانها فى مواضع ويصيبها القحط فى مواضع أخرى، وتنساب النسائم رقيقة خفيفة فى بعض المرتفعات وتقسو حرارة اللهيب والشمس فى بعضها الآخر فهى بيئة أخذت من الحياة وأعطتها.

وللبيئه أثر جوهري فى خلق الشخصية وتنمية الملكة وصقل الوجدان وطبع الشعور بطابع الرقة أو الغلظة أو تنشئة الإنسان على نحو من صرامة الطبع ولينه أو عمق التفكير وسطحيته أو ليس الإنسان وليد بيئته؟

" والناقد المنصف المستنير هو الذي ينظر إلى الشاعر أو الكاتب فى إطار عصره" (١)

فينظر إلى الأديب بالعين التي ترى إرتباطه بمجتمعه وعصره الذي يعيش فيه حتى يتمكن من فهمه وتقرير أحكامه دون تحيز، فلا ينبغي أن يوصم أديب بأن أسلوبه صارم قوي شديد يحتاج إلى المعاجم لفك طلاسمه وكشف رموزه، كما لا يتهم أديب بأن أسلوبه سهل واضح لا يحتاج إلى إمعان وتروي لمعرفة دقائقه وكشف أسراره، إنما يقال إن نتاج هذا الأديب تبع بيئته ووليد الحياة التي يحيا فهو إليها يرتبط ومنها ينبع وعليها شب ونما.

انظر إلى ابن المعتز وهو يتحدث عن الشباب والشيب يقول: (٢)

وأسفرت على برقه أرجاؤه واعلنكست فى متنه طخياؤه
أنبت نورا مخصبا فناؤه تكمن فى أرواحه أنداؤه
أتيته وثوبه ظلماؤه

ثم قارن بينه وبين هذا النموذج، يقول: (٣)

ماذا يريد المشيب منى أشمت بي حامدا وزادا

(١) فصول الأدب والنقد والتاريخ ، على أدهم، ط١ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م ، ص ٢٤٦.

(٢) شعر ابن المعتز، ج٢ ص ٤١١. جاء في لسان العرب . اعلنكس : ركب بعضه بعضا من كثرته ، وليلة طخياء شديدة الظلمة

(٣) شعر ابن المعتز، ج٢ ص ١٥٨– ١٥٩ .

غيرتـــه بالســـواد لمـــا غيـــر مـــن فقـــده حـــدادا
ولـــم أنـــل مـــا أردت منـــه لكنـــــه نـــــال مـــــا أرادا
لـم أخضـب الشـيب للغـواني أرجـــو بـــه عنـــده ودادا

فهل يعاب الأسلوب الأول لوعورته واقترابه من أسلوب الشعر فى العصر الجاهلى ؟ أم يعاب الأسلوب الثاني لسهولته على الرغم من عمق فكرته ؟

إن للشعر الجاهلى أسلوبه وقوته وجزالته فطابعه البدوي الواضح في شتى الدواوين الجاهلية ما هو إلا أثر للبيئة والحياة آنذاك؛ ولذلك يكثر به الغريب والوحشي ولا شك أن هذا أثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقول ونفوس أبنائها.

وقد سار بعض شعراء العصر العباسي على هذا المنهج حينا وحين أخر أغرقوا فى السلاسة والسهولة، وهم في الحالتين متأثرون ببيئات الشعراء فى الجاهلية أو بالشعراء فى العصر الإسلامي.

ولاشك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز فى نتاج الأديب وفنه، وتظهر أثر الحياة والحضارة في نفسه، ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلب ضعفاً وعامية وركاكة، وأن توشى بألوان من الجزالة فى مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء، كما يجب ألا تنقلب الجزالة إغرابا وتعقيدا عند من يعيشون عصر الحضارة.

ونستمع إليه فى هذه المقطوعة التي تحدث فيها عن رؤيته لظاهرة الشباب والشيب يقول: (١)

تقـول وقـد رأت شـيباً علانـي أفـــي عـــامين أخلقـــت الشـــبابا
فقلـت لهـا الحـوادث أخلقتـه فللحـــدثان فـــانتحبي انتحابـــا
ألمـت بـي صـروف لـو ألمـت لعمـــرك بالزمـــان إذا لشـــابا

فهل هذه السهولة في الأسلوب نابعة من ظروف النص التي أمليت على الشاعر حيث يخاطب بهذا الأسلوب النساء على مختلف نوازعهن وتباين

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٣٧.

ثقافتهن؟ أم أنه استجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة التي يحيا وارتباطه بها، فكان ابن المعتز ابن بيئته الحضارية، تبدو فى شعره أثرها، ويردد مفرداتها، ويتناول معطياتها؟

إن شعر العصر العباسي وإن كان قد غلب عليه الرقة والعذوبة والسهولة نتيجة الحضارة، فإن شاعره لم يتخلص دفعة واحدة من تأثير القدماء فى نفسه، فقد عاش مرحلة القلق والتوتر بين ما ورث وبين ما يريد أن يستحدث؛ ولذلك فإنك ترى القوة والجزالة التي كان عليه الأسلوب القديم موجودة فى أشعار العصر العباسي مظهرا لحيرة شعرائه، إلى أن استقر بهم الحال وأصبح أسلوبهم على ما وسم به من السهولة والرقة بتأثير من الحضارة الوافدة والثقافات المتعددة.

ولما كان غالبية شعر ابن المعتز مقطوعات فقد تحقق لإسلوبها الوحدة العضوية التي تسلسل الأبيات وتربط بينها، وهذه الظاهرة تقودنا غلى ملمح من الملامح التي يتحقق بها الوحدة وهى القصصية نتيجة ارتباط أبياتها وتماسكها فى سبيل إتمام القصة والحكاية التي يقصها الشاعر ويحكيها لمتلقيه.

وإذا كانت القصة النثرية تهدف إلى غايات كثيرة وترمي إلى أهداف متنوعة، قد يكون هدفها التعرف على سير الأبطال والملوك وقد تكون حديثاً عن معركة حربية أو تحكي قصة حب وعشق خالدة أو ترمي إلى تسلية وقت الفراغ وتزجيته، أو تحكي حال عصر من العصور أوفترة من فتراته وما يعتريها من أحداث مؤثرة ؛ فما هدف ابن المعتز من وراء مقطعته القصصية؟ يقول: (١)

صـــرحت بالجفـــاء أم حبـــاب ... حـين باشـرتها بـبعض الخطـاب
قلـت : لـم ذا وقـد رأيتـك حينـا ... لا تملـــين عشـــرتى وعتـــابي؟
فتعللـــت بالخضـــاب لأحظـــى ... عنـدها سـاعة بلـون الخضـاب
فرأتـــه فـــأعرض ثـــم قالـــت ... سـتر سـوء علـى خـراب يبـاب

(١) السابق، ص ٢٣٧.

فالقصة فى المقطعة ليست كالقصة النثرية؛ فإيجاز الأبيات يميل بالقصة الشعرية فى المقطعة لأن يتناول الشاعر خلجة من خلجات النفس أو حديثاً عن مشاعره تجاه إنسان يعبر عنه فى دفقة شعورية، يكشف بها حقيقة عاطفته ويجلي مكنون صدره.

ونرى ابن المعتز قد اعتمد فى بداية قصته على التشويق " صرحت بالجفاء أم حباب " لفتا للنظر وتنبيها للسمع لما سيلقى من قول يتعرف به الملتقي على سر هذا الجفاء والخصام مع الحبيب، ولقد كشف الحوار عن سر عذاب الشاعر بهذا الجفاء " الشيب قد أتاك " وهنا تزداد المشكلة تعقيدا أيخرج من زمرة الأحبة والأصدقاء؟ فيأتي الحل من الشاعر " فتعللت بالخضاب " وعلى الرغم من ذلك لم تكن النهاية السعيدة " أعرضت وقالت ستر سوء على خراب يباب"

وهذه قصة أخرى مع امرأة جديدة يقول: (١)

قد علمت والسر يوما يظهر والشيب من تحت الخضاب ينظر
أن شباب شعرها مزور قالت كبرت وهى منى أكبر
قلت كذاك يكبر المعمر قالت وفي رأسك شيب مضمر
فقلت ..... الحليق أشعر فسكتت والحق ليس ينكر (٢)

فالسر الذي طالما حاولت إخفاءه قد ظهر " الشيب من تحت الخضاب ينظر " فشباب شعرها مزور " ، ثم انظر عندما يفتضح أمر إنسان فإنه من إضطرابه وألمه يندفع لمهاجمة الآخرين " قالت كبرت " على الرغم من أنها بهيأتها وحالها أكبر من الشاعر وقد أظهر الحوار محاولتها لقلب الحقائق وتبديل الأوضاع " فى رأسك مشيب مضمر ثم تأتي النهاية التي يختم بها الشاعر مقطعته أنه " أشعر " أى طويل لم يلحقه فلابد أن يظهر فيه ما تدعي فلما رأت الواقع المدعوم بالأدلة " سكتت والحق ليس ينكر "

(١) شعر ابن المعتز ،ج ١ ص ٦٥٣.
(٢) يقصد بـ أشعر: كثير الشعر طويله أو الذى لم يحلق شعره (شعر ابن المعتز) ،ج١ ص٦٥٣.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

وفى العصر العباسي رأينا انتشار كثير من العادات والتقاليد والأفكار التي بدأت تطرق أبواب هذا العصر، وقد أدت بدورها إلى قيام لغة جديدة مستحدثة مختلفة عن جرس اللغة المعروف عند العرب المتميز بالقوة والفخامة، فكانت اللغة الجديدة التي جمعت بين رقة الحضارة ونعومتها وبين اللغة الجديدة التي استحدثت متأثرة باختلاط العرب بغيرهم، فقد امتدت ظاهرة الألفاظ المعربة التي بدأت فى العصر الأموي إلى العصر العباسي فلم تنحسر أو تقل، يقول د. شوقى ضيف: " وليس معنى هذا أن ما لاحظناه فى العصر الأموي من دخول الكلمات الأجنبية إلى الشعر العربي انحسرت ظلاله، أو أن ضعف السليقة اللغوية انتهت آفاته أو أن اللكنات الأجنبية انحازت لغاتها عن الألسنة، فقد استمر ذلك كله بصورة أوسع من الصورة الأموية لسبب بسيط، وهو أن أغلب الشعراء كانوا أجانب، فكان فيهم النبطي مثل أبى العتاهية والسندي مثل هارون مولى الأزد وأبي عطاء، أما الفرس فلا نستطيع إحصاءهم وكان منهم بشار بن برد وأبان بن عبدالحميد وسلم الخاسر ومروان بن أبي حفصه وأبو يعقوب الخريمي ومسلم بن الوليد وغيرهم كثير".(١)

يقول ابن المعتز مستخدماً بعض الألفاظ الدخيلة المعربة : (٢)

أيها الشباب كم عبثت برأسي إن عمري عشر وعشر وبنج (٣)

طار من مفرقي غراب شبابي وعلاني من بعده شاهمرج (٤)

فالشاعر يتحدث عن حلول مرحلة المشيب فى تبدل شعر رأسه من اللون الأسود إلى اللون الأبيض " طار عن مفرقي غراب شبابي "، فالغراب وإن كان لونه السواد فكأن الشباب قد طار بطيرانه فهو نذير شؤم قد نعق بصوته

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربي، د/ شوقى ضيف، ط١ دار المعارف، ط١١ سنة ١٩٨٧م، ص١٢١.
(٢) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٤٧.
(٣) بنج : خمسة بالفارسيه، (شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٤٧)
(٤) شاهمرج : معربة من شاه وهو طائر ابيض كبير الجسم (شعر ابن المعتز، ج٣ ص١٤٧)

على شباب الشاعر فبدله " وعلا مكانه شاهمرج " تشبيه شعر رأسه الذي شاب كالشاهمرج وهو طائر أبيض.

ومن ذلك قوله فى هذه الأبيات التصويرية الطريفة مستخدماً كلمة " الطراز " وهى كلمة معربة: (١)

دب العذار على صحيفة خده مثل الطراز فزاد فيه تحيري

فكأن القنديل بات معلقاً تحت الدجى بسلاسل من عنبر

فالطراز : معرب وهو ما ينسج من الثياب للسلطان الفارسي. (٢)

٢- الصورة:

تطورت الصورة فى العصر العباسي تبعاً لتطور الحياة واتساع أفق الآداب، فارتدت حللاً لم تكن لها من قبل فى العهود السابقة، فإذا كان الشاعر قبل ذلك يمر على الحدائق فلا يرى فيها إلا جمالاً وحسن منظرها وتضوع شذاها فإن العصر العباسي نتيجة العلم والحضارة والذي يميل إلى التعمق في الأشياء والربط بينها وبين الواقع أصبح يرى الرابطة ويخلق الصلة بينه وبين مظاهر الحياة المختلفة والطبيعة من حوله، فهو يرى فى صفرة الورد أثر الشوق فى نفسه فيصفر وجهه، ويرى فى رقة النسيم نسمات مشوقة إلى حبيبه.

" وكان لانتشار العلوم واتساع الثقافة واستضافة الجدل بين العلماء واطلاع العرب على المنطق، كان لكل ذلك أثره فى الشعر العربي بل العقل العربي الذي أصبح ينتظر لكل شيء تعليلاً ويتطلب عليه دليلاً، وكان القدماء من جاهليين وأمويين لايجدون ضرورة لشغل أنفسهم والسامعين بمثل ذلك التعليل والتدليل " (٣)

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ٣٠٠.

(٢) ينظر لسان العرب. (طرز).

(٣) الشعر العربى بين التطور والجمود، د/ محمد عبدالعزيز الكفراوى، ط. دار نهضة مصر، ص١٨٢ – ١٨٣ .

وقد تطورت الصورة في ذلك العصر، فتلونت بما أصاب الحياة العقلية والاجتماعية من ألوان، فنرى أثر ذلك واضحاً في المبالغة والغلو فى الصورة أحياناً، ومن ثم يكون الفرق كبيراً بين الحقيقة التي يتحدث عنها الشاعر وبين الصورة التي يعرضها فيها.

وقد جد الشعراء من أجل براعة الصورة الشعرية في استنباط المعاني الجديدة وتصويرها تصويراً فنياً، وذلك بهدف الرغبة والتفوق على شاعر العصر الجاهلي مما يعني وجود أشياء لم يطرقها الشاعر الأول، وليس كما يقال من أن الأوليين قد تطرقوا إلى كل مايمكن التطرق إليه فلم يتركوا شيئاً لمن بعدهم.

وإذا بحثنا عن الصورة فى شعر ابن المعتز نراه يقول فى المشيب: (١)

برق المشيب وأرعد الدهرورأيت أن قد أخلق العمر

فتصوير الشاعر المشيب البرق فى هذه الاستعارة من حيث لمعان اللون وبياضه ثم اقتران البرق بهدير الرعود وضجيجها المخيف يعكس أبعاداً نفسية وجدانية ويكشف عن إحساس خفي ينبىء عن شدة قلق ابن المعتز وخوفه من هذه المرحلة العمرية المحتومة التي يغزو فيها برق الشيب مفرقه، فإذا " برق المشيب وأرعد الدهر " فلابد أن " يخلق العمر "، فتوالي البرق دليل على كثرة المطر الذي يؤدي إلى الإخلاق والتدمير والهدم، فمن برق شيبة توالت مصائبه وانطفأت بهجته.

ويؤكد هذا البعد النفسي وهذا الإحساس الباكي الحزين أبياته التي انبعثت منها معاني التوديع والشعور بقرب الأجل يقول: (٢)

أخلقنـــي حـــدة الـــزمن وطـــوت قلبـــي علـــى الحـــزن
إن مـــن ولـــت شـــبيبته وجـــرى والشـــيب فـــى قـــرن
لقريـــب مـــن مفرقـــه بـــين روح المـــرء والبـــدن

(١) شعر ابن المعتز، ج١ ص١٦٥.
(٢) السابق، ج ٣ ص ٢٠٩.

وصور ابن المعتز تقوم على الاستعارة والكناية والتشبيه، وكان يهيء لصوره عناصر النجاح حين يختار اللفظ المعبر عن الصورة والموافق لها، وكانت لا تقف عند المحسوس وانما تتعداها إلى المعنويات.

كما أن صوره تظهر حيرته بين ما يتنازعه من أمرين يتجاذبان نفسه بين رؤيته لأثر ماضيه وماضي أسلافه من الشعراء ممن لا شك قد عملوا على تأسيس شاعريته ووضع قواعدها وبين رؤيته لواقعه فى تعبيره عنه وبيان أثره فى نفسه فترى التشبيه القديم وهو يتحدث عن إنكار محبوبته لتغير حالته وهيأته بفعل إقبال المشيب بعد الشيب يقول: (١)

ألا نكرت شر شجوني وراعها نحول أرق العظم واستلب الغمضا
وشيباً تعرى فى الشباب كأنه سراج صباح شق فى الليل مبيضا

فبياض الشيب غزا حلكة شبابه وانتشر في أطرف فوده مثل ضوء سراج شق ظلام الليل وانتشر فى جنباته وهى صورة حسية تقليدية؛ فالسراج من التشبيهات التي يكثر استخدامها منذ العصر الجاهلي، فهل يقال إنها صورة مبتذلة كثيرة الاستخدام في أشعار العرب كثيرة الجريان على ألسنتهم تستدعيها الذاكرة، إذا عمد الشاعر إلى التشبيه فتأتي تهرول حتى تكون أسبق من غيرها؟

قد يكون هذا صحيحاً إذا لم ننظر إلى السراج وأهميته حسب كل عصر وردت فيه صورته، فالبيئة البدوية مما يعج فى ظلام دامس بعد أن تغيب عنها شمس النهار فتكون الحاجة إلى السراج والضياء ملحة، فإذا وجد هذه المصابيح الهادية عبر عن فرحته بها، فهى عنده تعدل أثمن الأشياء وأغلاها على نفسه وأحبها إلى قلبه ، وابن المعتز هنا يعبر عن وفائه لتراث أجداده من شعراء العصور السابقة.

(١) شعر ابن المعتز، ج٢ ص ٣٣٧.

وقريب من هذه الصورة قوله لمحبوبة أخرى: (١)

ومازلت ترجو نيل سلمى وودها وتبعد حتى ابيض منك المسائح
ملا حاجبيك الشيب حتى كأنه ظباء جرى منها سنيح وبارح (٢)

فتذبذب حال الشاعر في علاقته بمحبوبته سلمى بين الأمل واليأس ظل مستمراً حتى ابيضت منه الذوائب وملأ المشيب حاجبيه فكان كالظباء التي تجري " سنيح وبارح " صباحا ومساء يمنى ويسرى .

على أن ابن المعتز إذا كان قد استخدم الصورة القديمة فإن الرغبة الثانية المعبرة عن واقعه قد أفسحت لها ماكناً فى شعره فجاءت في قوله وهو يتحدث عن التحولات فى هيأته من أثر المشيب يقول: (٣)

حنتني خطوب الدهر حتى كأنني أسير رأى وجه الأمير فكفراً

فانظر إلى أثر أحداث الدهر المتوالية ونزول النوائب وتوالي المصائب قد أحنى الشاعر حتى كأن هذا الانحناء لصورة أسير وقع فى أيدي أعدائه فدخل عليه الأمير فانحنى أمامه واضعاً يده على صدره يتطامن له خضوعا(٤).

ومن ذلك أيضاً قوله فى رأسه حين اختلط السواد بالبياض نذير انتقال من مرحلة لمرحلة أخرى يقول: (٥)

شعرات فى الرأس بيض ودعجحل فيها جيلان : روم وزنج

فالفترة الزمنية الفاصلة بين عمرين أو مرحلتين قد لونت شعر رأسه بلونين: الأبيض والأسود فانتزع لها تشبيها واقعيا من عصره الذس يعيش فيه " روم وزنج " فالروم للمشيب رمز البياض والزنج للشباب رمز السواد .

(١) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ٢٥٢.
(٢) السنيح : م آتاك عن يمينك من ظبى والبارح ما آتاك عن يسارك (لسان العرب . سنح).
(٣) شعر ابن المعتز، ج١ ص ١٠٧.
(٤) كأن يطاطىء أحدهم لصاحبه عند التسليم عليه، (شعر ابن المعتز، ج١ ص ١٠٧).
(٥) شعر ابن المعتز. ج٣ ص ١٤٦.

ثم انظر إلى هذه الصورة المبتكرة في الإقناع المتكيء على أدلة العقل وحجته وقد أجرى هذه الحجة على لسان محبوبته حين راحت تحدثه عن هجره لها متعللاً بمشيبه يقول:(١)

دعتني إلى عهد الصبا الخدر وألقت قناع الخز عن واضح الثغر
وقالت وماء العين يخلط كحلها بصفرة ماء الزعفران على النحر
لمن تطلب الدنيا إذا كنت قابضا عنانك عن ذات الوشاحين والشذر
أراك جعلت الشيب للهجر علة كان هلال الشهر ليس من الشهر

فما أبرعها من حجة وما أقواه من دليل " أراك جعلت الشيب للهجر علة " فهى تتمنى وصله دائماً فى حالتي : الشباب والشيب ولن تصدر أو تعرض إذا انتقل من مرحلة لأخرى، ولاترى عيباً في وصله؛ فمشيبه جزء من حياته " كأن هلال الشهر ليس من الشهر " فالهلال أبيض رمز للمشيب، ويأتى فى نهاية مراحل القمر ومع ذلك هو جزء مكمل للشهر كما أن المشيب جزء مكمل لمراحل العمر.

وقد ترى في بعض صور ابن المعتز ميلا إلى المبالغة سمة شعراء عصر الحضارة فقد يميلون إلى المبالغة والإغراق فى صورهم؛ ليدلوا على مدى ما وصل إليه العلم والرقي ، فالعصر عصر الضخامة والمبالغة في كل شيء ضخامة الدولة وفخامتها وضخامة الجيوش وتكدس الأموال.

يقول ابن المعتز فى تصوير عظم ذنب المشيب: (٢)

الشيب أعظم ذنباً عند غانيةمن ابن ملجم عند الفاطميينا

فإذا كانت هذه الغادة الحسناء ترى الشيب ذنبا فما بالها لم تكن كسابقتها التي ساقت الحجج والأدلة على وجوب تقبل مرحلة المشيب كمرحلة من عمر الإنسان ؟ ولكن أن تعده ذنباً كذنب ابن ملجم الذي قتل الإمام على _ رضى الله عنه _ وهو ذنب لايغتفر عند الفاطميين ففيه من المبالغة والتهويل ما فيه .

(١) السابق، ص ٢٨٩.
(٢) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ٣٧٩.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

وأخيراً ترى فى صور ابن المعتز احتواءها لكل صنوف الصور وأنواعها فترى استخدامه المحسنات البديعية يقول: (١)

الشيب كره وكره أن يفارقني يمضي أحبب بشيء على البغضاء مودود
الشباب وقد يأتي له خلف والشيب يذهب مفقودا بمفقود

فعلاقة التضاد اللفظي فى العبارات (الشيب كره ، وأحبب بشيء) وفى (البغضاء و مودود) تبين علاقة التضاد الشكلى والنفسى بين مايحدثه الشباب والشيب، وتدل على رؤيه فلسفية للشاعر لهذه القضية " يمضى الشباب وقد يأتى له خلف " فيعقبه المشيب وأما الشيب " يذهب مفقوداً بمفقود" فبنهايته تنتهى حياة الإنسان ولا يعود.

٣ الوزن:

وقد يعن لنا فى هذه الدراسة أن نسأل ما هى الموسيقى التي خرج شعر ابن المعتز فى إطارها؟ وما هى الأوزان التى نظمت عليها أبياته؟

" ونحن نسأل أنفسنا: هل كان الشاعر القديم يتخير لشعره من الأوزان ما يلائم عاطفته؟ وهل جاءت الأوزان مختلفة تبعاً لاختلاف الشعور عند الناظمين من القدماء، وقد يكون من العسير أن نجيب على هذا التساؤل إجابة مقنعة؛ وذلك لأننا نرى في مقاطع هذه الأوزان المتباينة ما يوحي بمثل هذا فهى كلها تخضع لروح عام فى توالي المقاطع ولا يفرق بينها إلا كثرة المقاطع أو قلتها " (٢)

وقد يسأل قارئ الشعر العربي وهو يتذوق جمال نغماته ويستعذب رائع توقيعاته، هل اتخذ الشعراء أوزاناً خاصة لكل موضوع شعري ينظمون فيه ؟

ونقول: إن إطلالة على بعض النماذج الشعرية فى كل العصور ومنها العباسي مجال البحث تكشف حقيقة واضحة، وهى أن الشعراء حين كانوا يمدحون أو يفخرون أو يهجون أو يتغزلون، إنما كانو يفعلون ذلك من كل البحور الشعرية التي وضعها الخليل واستنبطها من أشعار العرب، مما يعني

(١) السابق، ج٣ ص ١٦٠.
(٢) موسيقى الشعر، د. ابراهيم أنيس ، ط مكتبة الأنجلو، ط ٦ ١٩٨٨م ،ص ١٧٦.

ذلك عدم الاشتراك وفقا لأمزجتهم النفسية فى بحر واحد إذا اتفق الفن أو اللون الذي ينظمون فيه.

" على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر أن الشاعر فى حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزناً طويلا كثير المقاطع؛ يصب فيه أشجانه ويخرج فيه لوعاته وآهاته، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الهلع والفزع لايكون عادة إلا فى صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد أبياتها على عشرة، أما تلك المارثي الطويلة فأغلب الظن أنها نظمت بعد أن هدأت ثورة الفزع واستكانت النفوس ".(١)

فإذا ذهبنا إلى شعر ابن المعتز فى الشباب والشيب نرى كيف صبه فى قوالبه الموسيقية، يقول:(٢)

برق المشيب وأرعد الدهر ... ورأيت أن قد أخلق العمر
وإذا ألمني تلك التي سلفت ... ما إن لها عن لذة قصر
والمرء يرجو الخير مجتهداً ... ببقائه وبقاؤه شر
ليت الصبى إذا فات مطلبه ... لم يبق لي من بعده الذكر
قد قلت للواعي مقال أخ ... ما للعواقب دونه ستر
الناس إن وافقتهم عذبوا ... أو لا فإن جناهم مر

فالشاعر قد نظم هذه الأبيات على بحر الكامل وهو يتحدث عن مشاعره الملتاعة ونبضاته المهتاجة حين دبّ إليه المشيب، ومعروف أن بحر الكامل من البحور الطوال التي تخالف ما تكون عليه حال الشاعر، فكان عليه وهو فى حال ثورة أن يختار البحور القصيرة ليلائم خلجاته النفسية التي يجتاحها الانفعال ويعتريها الاضطراب والقلق.

(١) موسيقى الشعر إبراهيم أنيس ، ص ١٧٧– ١٧٨.
(٢) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٦٥ – ١٦٦.

" وفى الحق أن النظم حين يتم فى ساعة الانفعال النفساني يميل عادة إلى تخير البحور القصيرة وإلى التقليل من الأبيات؛ ولذلك لا نستطيع أن نتصور تلك المعلقات الطوال قد قيلت ارتجالاً كما يتبادر إلى الذهن" (١)

فهل قال ابن المعتز هذه المقطعة بعد أن هدأت ثورة حزنه وسكنت وخزات ألمه وهياجه لقدوم مشيبه؟ أو أن الشاعر عمد إلى هذا الوزن ليبرز حاجة فى نفسه تلاءم الوزن معها فأظهرها؟

إن الشاعر كما يبدو قد هدأت انفعالات نفسه وسكنت عواطف حزنه وألمه، ومن ثم راح يتحدث عن أثر المشيب وما ينبغي للمرء أن يفعله فى تلك الفترة الزمنية من حياته.

ولو نظرنا إلى هذه المقطعة التي يتحدث فيها عن ذهاب الشباب موضحاً حالته النفسية من البكاء الدائم والحزن والأسى المقيم يقول: (٢)

ولـى الشـباب ولـم يعـد بإيـاب ومضـــى بقـــرة أعـــين الأحبـــاب
وأقام في معنى الأسى من بعده بـــاكٍ عليـــه دائـــم الأوصـــاب
قد كان يغدو بالدهـــان أثيثة مصـقولة كسـيت جنـاح غـراب (٣)
أيـام يغـــدو للنواظـــر مبهتـا تحلـــى محاســـنه بحلـــي شـــباب
فـالآن بـدل مـن سـواد عمامـة شـيبا تطلـع مـن خـلال خضـاب

فنجده قد تخير له بحر الكامل أيضا وهو من البحور التي تصلح لأن يحكي بها من خلال موسيقاه وتفعيلاته قصة أو حكاية؛ ففيه روح الترنم والنشيد كي يتغنى المرء بأثر قدوم المشيب عليه وذهاب الشباب فيعمل لكل مرحلة ما يناسبها ويفيد من كل فترة ما تتركه فى نفسه من آثار.

ويتحدث ابن المعتز عن صدود الغواني وتغيرهن عليه حين قدم مشيبه وما يصاحب هذا التغيير من إحساس مرير، فقد ولى شبابه واستشعر مرارة هجرهن وصدودهن يقول: (٤)

(١) موسيقى الشعر، ص ١٧٩ .
(٢) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٣٢.
(٣) أثيثة : الشعر الكثير الغزير، (لسان العرب : أثث).
(٤) شعر ابن المعتز، ج٣ ص ١٣٦.

حـــدثت عـــن تغربـــي أترابـــا ومشـــــيبي فقلـــــن والله شـــــابا
نظـــرت نظـــرة إلـــي وصـــدت كصـــدود المخمـــور شـــم الشـــرابا
قلـت أدنـى مصيبة نزلـت بـي أن تصـــدى وقـــد فقـــدت الشـــبابا

فهو يتوجه بالنصيحة لكل إنسان أن يعد العدة لتغير الزمان وما يترتب على هذا التغير، فإذا كانت الحسناء تبغي ودك فى مرحلة الشباب فها هى عن تجربة قد تبدلت نظرتها وصدت " صدود المخمور شم الشرابا " فالصورة تعنى الاكتفاء بعد تلذذ وتنعم ولم تعد لها قابلية فى مزيد بعد تغير الوضع.

ونسج هذه النصيحة فى تفعيلات بحر الخفيف، ومعروف أن هذا البحر ذو نغمة جميلة عمد إليها الشاعر؛ ليجذب إليه عقل سامعه وليعى ما يرمي إليه من وراء كلماته فيقبل على النصيحة مأخوذ بموسيقاها الجميلة العذبة متأثرا بنغمتها الرقيقة الخلابة، فيعمل بها ويتمثل معانيها، وقد أخذ الشاعر متلقيه وناصحه باللين والرفق شأن من ينصح ليعمل ما يقول.

ولعل فى ختم القافية بألف الإطلاق ما يدل على مد الأنفاس وإشباع أحاسيس الألم التي استشعرها ابن المعتز، وعلى الرغم من ذلك غلف أبياته في قالب من يريد تقديم النصح ليفيد منها من يسمعه .

ويدعو ابن المعتز اللائم ألا يكثر من لومه وعتابه فما ذنبه إن تولى شبابه وقدم مشيبه، وإنما من حق عليه اللوم والعتاب مشيبه، يقول: (١)

أيـا عـاذلي اليـوم لا تكثـرا العـدلا ومهـلا دعـاني مـن ملامكمـا مهـلا
ولومـا مشـيبي أن كبـرت فـإن لـي شـبابا أصـم الأذن لايسـمع العـذلا
وفتيـان لهـو قـد بعثـت بسـحرة إلـــى خمـــار فحطـــوا بـــه رحـــلا

فالتضاد بين " لا تكثر العذلا لوما مشيبي " ؛ لأن شبابه أصم لا يسمع فيمضي فى التولي والذهاب عن الشاعر دون رحمة أو أرفق ومن ثم سبق الإنشاء بالنداء " أيا عاذلي " لينبههما إلى الحقيقه وأنه ليس المنوط به التقريع واللوم ومن ثم يقلعان عن ملامه ويترفقان بحاله.

(١) السابق، ج٢ ص ٢٠٤.

والشاعر حين عبّر عن هذه الغصة النفسية قد غلفها ولملم أجزاءها على تقاسيم بحر الطويل، وهو وزن كثير المقاطع يصب فيه الشاعر أشجانه وأحزانه، ويخرج لوعاته وآهاته ويفصح فيه عما يكابده من ألم، فالنفس غائمة والفؤاد معتكر والقلب قريح.

وتجد ابن المعتز يخالف ما تعارف عليه محللوا الأدب ودارسوا العروض حين يستخلصون من أشعار الشعراء قواعد عامة، إلا أنها ليست ملزمة وإن كان غالبيتهم ينهجون النهج نفسه ومن ذلك قوله: (١)

نـوائح شـيب فـى حـداد شـباب ... يبكـين نفسـنا آذنـت بـذهاب
وأعجب شيئ مع باكٍ على امرئ ... وترمـى يـداه فوقـه بتـراب
ألست ترى هل فى اللهو موضع ... عسـى بعـد شـيب شـامل وخضـاب
ألا رب يـوم قـد تقاصـر طولـه ... علـىّ بكـأس مـن رحيـق شـراب

فانظر إلى هذا العمق الفلسفي الذي جاء تصويره عبر هذا المشهد الجنائزى " نواح شيب فى حداد شباب " فقد مات الشباب وحمله المشيعون على الأعناق وسار خلفه المعزون ومن هم ؟ إنها شعيرات المشيب التي تنوح على تولي فترة الشباب، ولو نظرنا إلى البحر الذي نظم عليه الشاعر هذه الأحاسيس رأيناه بحر الطويل، وعند الدارسين أن خير تعبير عن الفجيعة والحسرة والألم على الموت هو الذي تهتاج فيه عواطف الشاعر، وتتصادم أحاسيسه ومشاعره ويناسب هذه الحالة الكثير من البحور؛ فلماذا نظم الشاعر على بحر الطويل ؟ هل للشاعر مآرب من المخالفة فى النظم على هذا البحر؟

إن الشاعر قصد من وراء هذه المخالفة باختيار بحر الطويل؛ أن يزين الصورة بموسيقى الشعر فهى بمنزلة الإطار الجميل لها، إنه يزينها حقاً ولكن لا يشغل الناظر عن حسنها شيئاً، فالشاعر لم يغفل إنسجام وقوة الموسيقى فى نظمه غير أنه على قوتها أراد أن يزويها وراء كلامه، فلا تطغى على تلك الصورة التي أراد أن يصورها في هذا المشهد الجنائزي بين الشباب والشيب،

(١) شعر ابن المعتز، ج١ ص ٦١٥.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الثالث المجلد الخامس٢٠١٨م

هذا المشهد الذي كشف عن أبعاد نفسية توحي بالغصة الممزوجة بالعمق الفلسفي التي نطقت بها هذه الصورة الشعرية الفريدة الملائمة لروح العصر.

ولو نظرنا إلى ابن المعتز وهو يتحدث عن موقفه من الشيب وكيف حاول الإحتيال على قدومه، يقول:(١)

كذبت على الشيب حتى صدقت ودب علـــى مفرقـــي واشـــتعل
وغيـــــر حـــــالي فغيرتـــــه فعلـــت بـــه مثـــل مـــا قـــد فعـــل

فالتضاد بين " كذبت " و " صدقت " يدل على اضطراب نفسية الشاعر الذي ظن أن كذبه المتوالي قد حوله إلى صدق، وأن الشيب لن يأتى إليه فما أن "دب على مفرقي واشتعل " ثم يأتي التعبير النفسي الآخر " غير حالي فغيرته " إنها المعركة التي بدأت منذ البداية حين أراد الشاعر ألا يخط المشيب رأسه، فلما انهزم في المعركة راح يتحايل بالخضاب ليغير لون الشعر لعله يستقر نفسيا، ولكن هيهات وقد نظم الشاعر حبات هذه الأبيات فى عقد بحر المتقارب وهو بحر يمتاز بكثرة حركته واضطرابه " دب على مفرقي اشتعل غير حالي فغيرته " وكلها حركات وأفعال فى معركة مقاومة المشيب .

ويحدثنا عن مشيبه وما أحدث من شماتة الحساد، يقول: (٢)

مـــاذا يريـــد المشـــيب منـــي أشـــمت بـــي حاســـداً وزادا
غيرتـــــه بالســـــواد لمـــــا غيّـــر مـــن فقـــده حـــدادا
ولـــم أنـــل مـــا أردت منـــه لكنـــــه نـــــال مـــــا أرادا
لـــم أخضـــب الشـــيب للغـــواني أرجـــو بـــه عنـــدهن ودادا

فماذا فعل حيال " شماتة الحاسدين؟ " لقد غير بياض شعره سواداً بالخضاب فهل أفلحت محاولته ؟ " لم أنل ما أردت ، لكن نال ما أرادا " فهذا التضاد يدل على حسرة الشاعر من انتصار المشيب عليه في النهاية وتسليمه له بهذا الانتصار.

(١) السابق، ص ١٥٨ – ١٥٩.
(٢) السابق، ص ١٥٨ – ١٥٩.

وإذا نظرنا إلى البحر الذي جاءت عليه الأبيات نرى أن الشاعر قد سبك أبياته في بوتقة بحر البسيط، فلماذ عبر بهذا البحر بما فيه من تفعيلات طوال؟ هل قاله بعد أن هدأت نفسه وزال حزنها لما أقرت بالهزيمة في معركتها مع الشيب؟

" بحر البسيط فيه بقية من استفعالات الرجز ذات دندنة تمنع نغمه أن يكون خالص الإختفاء وراء كلام الشاعر، وكامل النزول منه بمنزلة الجو الموسيقي الذي يكون من الشعر كالإطار من الصورة" (١)

وحين نبحث عن استخدام الشاعر لبحر الرجز، نراه يقول على نغماته:(٢)

سقيا لأيام مضت قلائل ... إذا أنا في عذر الشباب الجاهل
وآمن يطيع قلب الآمل ... ولمتي مصقولة السلاسل
أحكم في غرات دهر غافل ... فقصر الحق عنان الباطل
ووعظ الدهر بشيب شامل ... وشكني بأسهم قواتل

وبحر الرجز يصلح للغناء والترنم فلو تمعنت الأبيات وجدتها أغنية تتغنى بفترة الشباب وآمالها، وتترنم بمرحلة المشيب وآلامها فناسب توقيعاته هذه المشاعر الغنائية.

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د / عبد الطيب المجذوب، ط دار الفكر، ج الأول ص٤٥٢.

(٢) شعر ابن المعتز، ج١ ص ١٥٣.

الخاتمة

ونلخص فى الخاتمه أبرز النتائج التى انتهت إليها الدراسة وهى :

١- أن للمشيب والتربية أثر وفضل في اتجاه ابن المعتز للحديث عن الشباب والمشيب فهو أمير تربى في القصور له الكثير من العلاقات العاطفية مع الغيد الحسان فكان فى فترة الشباب بما فيها من زهوة وقوة وثراء موضعا التطلع والإعجاب، فلما بدأ مرحلة المشيب رأى الإعراض والصدود والبعد والهجران، فتحدث عن هذه الظاهرة مبيناً مظاهر كل مرحلة وما تتطلبه وما ينتج عنها، مع بيان رؤيته ونظرته العميقة بين النقيضين .

٢- تناول كثير من الشعراء الشباب والشيب، وعرضوا لهما، مبينين تعلق النفس بمرحلة الشباب، مع بيان مآثرها ومزاياها وفضلها، متحسرين على قدوم المشيب بأماراته والنتائج المترتبة عليه، وجاء ابن المعتز مسجلاً رؤيته الفلسفية في تلك القضية المحتومة، مبينا الدليل عليها فى كثير من النماذج التي عرض لها .

٣- كان أسلوب كل عصر نابعاً من شخصية أصحابه، ومعبراً عما يتناولون وما يتأثرون به من مؤثرات، والعصر العباسي لطول ابتعاده عن العصر الجاهلي تميز برقة الأسلوب، وطبع بطابع الحضارة، وإن جاء أحيانا معبراً عن حالة القلق التي عاشها أصحاب هذا العصر وهم يحاولون خلع رداء من سبقوهم فى التعبير والتصوير ومحاولة الصياغة على نهج جديد ، ينظرون فيه إلي واقعهم دون أن يرجعوا إلى نتاج من سبقوهم فلم تعد صالحه لما يعلنون أو يعيشون فيه.

٤- وأما الصورة فقد جرى عليها ما جرى على الأسلوب، فتراها منتزعة من واقعها، يعمد إليها الشاعر ليصف ما رآه ووقعت عليه عينه قبل أن تقع عليه عين الآخرين، فيحاول توضيحه وتقريبه فى أذهانهم من خلال مقارنته بما هو واقع تحت رؤيتهم وقريب من بصرهم ومرأى نظرهم.

٥- أما اختيار ابن المعتز لأوزانه فقد جاءت ملائمه لما احتوته تجاربه الشعورية بما فيها من اضطراب نفسي وقلق فكري وإحباط وجداني؛ نتيجة اصطدام مشاعره بصخرة الواقع المحتوم، وواقع فقدان ظلال الشباب وانحناء رأسه لبروق المشيب.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

١-ديوان ابن المعتز، فسر ألفاظه محى الدين الخياط، طبع عبدالباسط الأنسي مطبعة الإقبال -بيروت١٣٣٢هـ -١٩١٤م

ثانيا : المراجع

٢-ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، د/ محمد عبدالمنعم خفاجه، ط مكتبة الحسين، ط الأولى ١٩٤٩م.

٣-ديوان ابن الرومي ، شرح أحمد حسن بسج، ط دار الكتب العلميه بيروت، ط. الأولى الجزء الأول ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤-ديوان أبى تمام، بشرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ، ط دار المعارف ط٤.

٥-ديوان أبا العتاهية، شرح أنطوان الشعوال، ط دار الفكر العربي بيروت، ط الأولى ٢٠٠٣م.

٦-ديوان أبي نواس، ط دار صادر بيروت.

٧-ديوان البارودي، حققه وصححه على الجارم ومحمد شفيق معروف، ج الأول.

٨-ديوان جميل بثينه، شرح وتحقيق عدنان زكى رويس، ط دار الفكر بيروت، ط ٣ ٢٠٠١م.

٩-ديوان دعبل الخزاعي، جمعه وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي، ط دار الكتاب اللبناني، ط الثانيه ١٩٧٢م.

١٠-ديوان عمر بن أبى ربيعة، شرحه وقدم له عبد أعلى مهنا، ط دار الكتب العلميه بيروت، ط الثانيه ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

١١-ديوان المتنبي، شرح عبدالرحمن البرقوقي، ط دار الفكر العربي بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠١٢م.

١٢-ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف ط ٣.

١٣-الشباب والشيب في الشعر العربي حتى العصر العباسي د/ عبدالرحمن هيبة، الجزء الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب – اسكندرية.
١٤-الشعر العربي بين التطور والجمود، د/ محمد عبدالعزيز الكفراوى، ط دار نهضة مصر.
١٥-شعر ابن المعتز، صنعه أبى بكر الصولي، دراسة وتحقيق د/ يونس السامرائي المكتبة الوطنية ببغداد – ١٩٨٧م.
١٦-الشهاب فى الشباب والشيب، الشريف المرتضى، ط مطبعة الجوائب قسطنطينية ط الأولى ١٣٠٢هـ.
١٧-عبدالله ابن المعتز، د/ محمد عبدالعزيز الكفراوى، ط مطبعة نهضة مصر.
١٨-عبدالله ابن المعتز علمه وأدبه، د/ عبدالعزيز سيد الأهل، ط مكتبة نهضة مصر ط الأولى ١٩٥٧م.
١٩-العقد الفريد لابن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان، ط المكتبة التجاريه، الجزء الثانى ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.
٢٠-العمده لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط دار الجيل بيروت، ط الخامسه الجزء الأول ١٩٨١م.
٢١-فصول الأدب والنقد والتاريخ، علي أدهم، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م.
٢٢-الفن ومذاهبه فى الشعر العربي، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، ط١١ ١٩٨٧م.
٢٣-القاموس المحيط ، محي الدين الفيروز آبادي، ط دار الجيل بيروت، الجزء الأول.
٢٤-اللطائف والظرائف لأبى منصور الثعالبي، جمع الإمام المقدسي، ط مطبعة صبيح القاهره ١٣٣٤هـ.
٢٥-لسان العرب لابن منظور، تحقيق محمد بن مكرم الأنصارى، ط١ دار إحياء التراث بيروت ١٤١٦ - ١٩٩٥م.

٢٦-لماذا يشقى الإنسان ؟ علي أدهم، ط مكتبة نهضة مصر بالفجاله.
٢٧-المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د/ عبدالله الطيب المجدوب، ط دار الفكر الجزء الأول.
٢٨-موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس ط، مكتبة الأنجلو، ط السادسه ١٩٨٨م.